توجيهات
ومواقف أخلاقية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع القانونى: ٢٠٠٥/١٠٩٥٠
الترقيم الدولى: I. S. B. N. 977-235-371-5

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

توجيهات ومواقف أخلاقية

إعـداد
الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن لمكارم الأخلاق منزلة عليا في الإسلام، وقد جاءت فيه توجيهات ربانية ونبوية كثيرة، ولست الآن في مقام الحصر لما ورد في ذلك، فإن هذا الكتاب لم يؤلف لجمع أطراف هذا الموضوع الجليل، وإنما تم رصد مواقف لمجموعة من أعلام المسلمين من الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم، فرأيت من المناسب أن أصَدِّر أبواب هذا الكتاب بنبذة من التوجيهات النبوية، حيث كان رسول الله ﷺ هو قدوة المسلمين جميعًا في جميع أمور الدين.

ومما جاء عنه ﷺ في بيان فضل مكارم الأخلاق ومنزلتها من الدين ما أخرجه الإمامان مالك وأحمد رحمهما الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١).

ففي هذا الحديث وأمثاله بيان أهمية الأخلاق الكريمة في الإسلام، فلقد قصَر النبي ﷺ رسالته على إتمام مكارم الأخلاق، والاهتمامُ بالأخلاق يأتي مباشرة، وذلك بالحث على مكارم الأخلاق كالوفاء والصدق والأمانة، ويأتي بالمقاصد الشرعية، فإن من المقاصد الشرعية في العبادات كالصلاة والزكاة والحج ما يترتب على أدائها من مكارم الأخلاق كالصبر والتواضع والمواساة.

فالصلاة مثلا قال الله تعالى عنها ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] ومفهوم ذلك أن الصلاة تأمر بالمعروف والإحسان، وذلك لأن الصلاة الكاملة تقوي الإيمان بالله تعالى، وتعمق في نفس المصلي تعظيمه سبحانه

(١) مسند أحمد ٢/ ٣٨١، موطأ مالك ٢/ ٩٠٤، حسن الخلق.

والخوف من عـذابه ورجاء ثوابه، وإذا تعمق هذا الشـعور الإيماني في قلب المسلم فـإنه يتكوَّن لديه الوازع الديني الذي يدفـعه إلى الفـضائل، ويردعـه عن الرذائل، وبالتالى يكون حاكمًا على تصرفاتـه وسلوكه في هذه الحياة، ومن ذلك بلوغه قمة عليا في الاستقامة على مكارم الأخلاق والبعد عن مساوئها.

وفي بيـان درجة مكارم الأخـلاق في الدين يقول رسـول الله ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بـحسن خلقـه درجة الصائم الـقائم**» أخرجـه أبو داود رحمـه الله من حديث عائشة رضي الله عنها[1].

وإذا كان المؤمن بحسن خلقه سيدرك درجة العبَّاد المكثرين من نوافل العبادة فما أعظم مكارم الأخلاق!

ويَعـدُّ النبي ﷺ أصحـاب مكارم الأخلاق أكـمل المؤمنين إيمانا حيث يـقول: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحـسنهم خلقًا، وخيارهم خيـارهم لنسائهم**» أخرجه أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[2].

وهذا يبين لنا فضـيلة أصحاب الخلق الحسن، الذين يعـاملون إخوانهم المسلمين بسماحة، ويبين لنا آخر الحديث فضيلة الذين يعاملون نساءهم بالرحمة والعناية.

ويبين لنا رسول الله ﷺ مـنزلة حسن الخلق يوم القيـامة حـيث يقول: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**» أخرجه أبو داود وأبو عيسى الترمذى رحمهما الله من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه[3].

وهكذا يظهر حـجم حسن الخلق في الميزان يوم القـيامة حيث توزن الأعـمال، وذلك يعطي حسن الخلق مزية كبرى بين الأعمال الصالحة.

فيا لسعادة من حسَّن خلقه مع المسلمين ولم يعاملهم بقسوة وفظاظة! وهذا يبين لنا خسـارة من يسيئون أخـلاقهم مع المسلمين، لأنهم يفقدون ثواب عـمل صالح كبير، ويبوؤون بعقوبة أخلاقهم السيئة.

---

(١) سنن أبي داود، رقم ٤٧٩٨، الأدب (٥/ ١٤٩).

(٢) مسند أحمد ٢/ ٢٥٠.

(٣) سنن أبي داود رقم ٤٧٩٩، الأدب (٥/ ١٤٩) سنن الترمذي رقم ٢٠٠٢، البر (٤/ ٣٦٢).

وقد عَدَّ النبي ﷺ خيار هذه الأمة أحسنهم أخلاقا، وفي ذلك أخرج الشيخان رحمهما الله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا، وإنه كان يقول: «**إن خياركم أحسنكم أخلاقا**»، وفي رواية أخرى للبخاري من حديث عبد الله بن عمرو: أن النبي ﷺ قال: «**إن من أحبكم إلي أحسنَكم أخلاقا**»(١).

فالمتفوقون في أخلاقهم قد ظفروا بالخيرية على هذه الأمة، وبمحبة رسول الله ﷺ.

ولقد كان حسن الخلق هو وصية رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه كما أخرج الإمام مالك رحمه الله من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كان آخر ما أوصاني به النبي ﷺ حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: **يا معاذ أحسن خلقك للناس**»(٢).

فهذه وصية من رسول الله ﷺ لمعاذ حينما بعثه إلى اليمن داعيًا ومعلما، وإنما أوصاه بذلك لأن مكارم الأخلاق من الدعائم القوية في التأثير على الناس واجتذابهم إلى الهداية.

***

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٠٣٥ ، ٣٧٥٩، الأدب وفضائل الصحابة (١٠/٤٥٦، ٧/١٠٢)، صحيح مسلم رقم ٢٣٢١، الفضائل (ص ١٨١٠).

(٢) الموطأ، كتاب حسن الخلق، باب ١ رقم ١ (٩٠٢).

توجيهات ومواقف
في
الحلم والعفو

مثل من حلم رسول الله ﷺ وعفوه:

سبق ذكر أمثله مما كان يتصف به رسول الله ﷺ من الحلم والعفو في سيرته الشريفة، وأضيف في هذا الفصل مثالا من حلمه وعفوه كان سببًا في دخول أحد أحبار اليهود في الإسلام، وذلك فيما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني بإسناده من خبر محمد بن حمزة بن يوسف بن عبدالله بن سلام عن أبيه عن جده قال قال عبدالله بن سلام رضي الله عنه: إن الله عز وجل لما أراد هُدَى زيد بن سعنة[1] قال زيد بن سعنة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها فى وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف له لأنْ أخالطه فأعرف حلمه وجهله.

قال: فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله إن قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، فكنت حدثتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا، وقد أصابتهم سَنَة وشدة وقحوط من الغيث، وإني أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعا، فإن رأيتَ أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به.

قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه أُراه عليّا فقال: ما بقى منه شيء يا رسول الله[2]، قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه فقلت: يا محمد هل لك أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا، فقال: لا يا يهودي ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا ولا أسمى حائط بني فلان[3]، قال: فقلت: نعم فبايعني، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطى الرجل، وقال: أعجل عليهم وأغثهم بها.

قال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة وخرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه

(١) هو أحد علماء اليهود، واختلف في اسم أبيه فقيل سعنة بالنون وقيل سعية بالياء والأول أشهر.

(٢) يعني فهم علي أن رسول الله ﷺ يسأله عن مال معين.

(٣) يعني لأنه قد لا يثمر الحائط المذكور فلا يمكن الوفاء منه.

رضي عنهم، فلما صلى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس عليه أتيته فأخذت بجوامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت: ألا تقضيني يا محمد حقي فوالله ما علمتكم يا بني عبدالمطلب إلا لُمْطْل[1]، ولقد كان لي بمخالطتكم علم.

قال: فنظر إليَّ عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني بطرفه وقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل به ما أرى! فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فَوْتَه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، وتبسَّمَ ثم قال: **أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التِّباعة**[2]**، اذهب يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان ما رُعْتَه.**

قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي وزادني عشرين صاعا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ فقال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رُعْتُك، فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فقلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحَبْر؟ قلت: الحبر، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت وتفعل ما فعلت؟! قال: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد خبرتهما، فأُشهدك ياعمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالي -فإني أكثرها مالا- صدقةٌ على أمة محمد ﷺ، فقال عمر: أو على بعضهم فإنك لا تسعُهم كلَّهم، فقال: أو على بعضهم.

قال: فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فآمن به وتابعه، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة[3].

وأخرج هذا الخبر من هذا الطريق الإمام الطبراني وابن حبان والحاكم وأبو الشيخ، كما ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني وذكر أن رجال الإسناد موثقون[4].

---

(١) يعني لا تؤدون الحقوق.

(٢) أي طلب الحق.

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم/ ٢٣ - ٢٤.

(٤) الإصابة ١/ ٥٤٨، رقم ٢٩٠٤.

فهذا الخبر يدل على اتصاف النبي ﷺ بالكمال في صفتي الحلم، والعفو، فإنه قد واجه الإهانة القولية والفعلية من ذلك الرجل، فتحمل ولم يغضب، وإنما واجه هذا الموقف بالسكون والطمأنينة، وأنكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما قام به من مخاطبة ذلك الرجل بالشدة والإرهاب، ووجَّهه إلى ما يتطلبه الموقف فيما لو تكرر ذلك المشهد، وهو أن يكون له جُهّد في امتصاص غضب أصحاب القضية، وذلك بتذكير كل طرف بواجبه، وهذا من تواضع النبي ﷺ، لأن ذلك الرجل قد جاء يتقاضى حقه قبل موعد حلول الدين، فليس النبى ﷺ بحاجة إلى أن يُذكَّر بحسن القضاء، ولكنه ﷺ أتحف أمته بهذا التوجيه الحكيم لمن حضر مثل هذا المشهد حتى يمكن القضاء على الخلاف قبل أن يتحول إلى عداء وخصام.

ونجد في هذا الخبر أن النبى ﷺ لم يهتمَّ بالدفاع عن نفسه، ولم ينظر إلى ما يجب لذاته من الاحترام والتقدير باعتباره زعيم أمة، بل نظر إلى ما ينبغي عمله في حال وقوع الخلاف بين الناس، من المبادرة إلى الإصلاح بين المتخاصمين وإيجاد التفاهم بينهم، وانتزاع بواعث الدفاع عن النفس واعتبار الذات في سبيل القضاء على الخصومات وإصلاح أحوال المجتمع.

هذا وينبغى الإشادة بموقف عمر رضي الله عنه الذي جعل من نفسه حاميًا لرسول الله ﷺ يَرُدُّ عنه صولة السفهاء والجاهلين، فهيأ بذلك جوّا من الهيبة يجعل الأعداء يحسبون حسابا كبيرا قبل أن يقدموا على مخاطبة النبي ﷺ.

ولقد أثمر توجيه النبى ﷺ في سلوك الصحابة رضي الله عنهم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبدو حليما عفوّا عن من جهل عليه، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عُيَينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر بن قيس لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هيْ يا ابن الخطاب[1] فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى

(١) هي صيغة تنبيه أي تنبَّه.

همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، قال: والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقَّافًا عند كتاب الله تعالى[١].

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما:

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الحلم والعفو ما ذكره السيوطي ونسبه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم من خبر ميمون بن مهران: أن أعرابيا أتى أبا بكر فقال: قتلت صيدا وأنا محرم فما ترى عليَّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر لأبيّ ابن كعب- وهو جالس عنده-: ما ترى فيها؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك، قال أبو بكر: فما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به[٢].

فهذا مثال لما كان يتصف به أبو بكر الصديق رضي الله عنه من الحلم والعفو حيث لم يؤاخذ ذلك الأعرابي الذي أنكر عليه بشيء من الجفاء.

وفي هذا المعنى أخرج ابن جرير الطبري من خبر قبيصة بن جابر قال: خرجنا حجاجا، فكنا إذا صلينا الغداة[٣] اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدث، قال: فبينا نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبي أو برح[٤] فرماه رجل منا بحجر فما أخطأ خُشَّاءه[٥]، فركب ردعه ميتا[٦] قال: فعظَّمنا عليه، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر، فقصَّ عليه القصة، قال: وإذا إلى جانبه رجل كأن وجهه قُلْبُ فضة[٧] - يعني عبدالرحمن بن عوف- فالتفت إلى صاحبه فكلمة، قال: ثم أقبل على الرجل قال: أعمدًا قتلته أم خطأ؟ قال الرجل: لقد تعمدت رميه وما أردت قتله،

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، حديث رقم ٤٦٤٢ (٨/ ٣٠٤).

(٢) الدر المنثور ٢/ ٣٢٩.

(٣) يعني صلاة الفجر.

(٤) سنح أتي من اليسار وبرح أتى من اليمين.

(٥) الخشاء هو العظم الدقيق العارى من الشعر الناتئ خلف الأذن

(٦) أى خر لوجهه ميتا على دمه.

(٧) القلب بضم القاف وسكون اللام السوار، أراد وصف وجهه بالبياض.

فقال عمر: ما أراك إلا أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها، وأَسْقِ إهابها[1].

قال: فقمنا من عنده قلت: أيها الرجل عَظَّم شعائر الله فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذاك[2]، قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿ **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة: ٩٥].

قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدِّرة[3] قال: فعلا صاحبي ضربا بالدرة، وجعل يقول: أقتلت في الحرم وسفهت الحكم! قال: ثم أقبل علي فقلت: يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم ما يحرم عليك مني!

قال: يا قبيصة بن جابر إني أراك شاب السن فسيح الصدر[4] بيِّن اللسان، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة، فإياك وعثرات الشباب![5].

وهكذا أدركت الخشية أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لما ذكَّره قبيصة بالحلال والحرام فأمسك عن ضربه وعفا عنه، وقد أعجب قبيصةُ عمر بما رأى من قوة بدنه وشجاعته وفصاحته فوعظه بهذه الموعظة التربوية التي فيها الثناء على قبيصة بما فيه من فضائل، وحثه على اجتناب سقطات الشباب.

من مواقف عثمان رضي الله عنه:

من ذلك ما أخرجه ابن شبة النميري من خبر عمران بن عبدالله بن طلحة: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة فدخل من الباب الذي كان يدخل منه، فزحمه الباب فقال: انظروا، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك، قال: سبحان الله،

---

(١) أي أعط جلدها من يدبغه ويتخذه سقاء. (٢) يعني يجزئ عنك.

(٣) أى العصا.

(٤) أي واسع الصدر وذلك من دلائل القوة.

(٥) تفسير الطبري بتحقيق محمود محمد شاكر ١١١/ ٢٤، والتعليقات مستفادة منه، وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٣٢٩ ونسبه أيضا لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وذكر أن الحاكم صححه، وذكر الحافظ ابن حجر أن سعيد بن منصور وصله بسند صحيح - فتح الباري - ١٢/ ١٣٥.

ويحك عَلامَ تقتلني؟ قال: ظلمني عاملك باليـمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إليّ فإن لم أنصـفك -أو أُعديك- على عامـلي أردتَ ذلك مني؟ فقال لمن حـوله: ما تقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، عدوٌّ أمكنك الله منه، فقال: عبدٌ همَّ بذنب فكفَّه الله عني، إئتني بمن يكفل بك: لا تدخل المدينة ماوليتُ أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به، فخلَّى عنه[1].

فهذا تسامح كبـير من أمير المؤمنين عثمان بن عفـان رضي الله عنه، حيث عفا عمن أراد قتله، والعفو عند المقدرة صفة من صفات الكمال في الرجال، وهو دليل على التـجـرد من حظِّ النفس، وتقلص الأنانيـة، وبروز خلق الإيثـار، وضـعف الارتباط بالدنيا، وقوة الارتباط بالآخرة.

وهذا الخلق إضافة إلى أنه عمل صالح يرفع من درجات صاحبه في الآخرة فإنه سيـاسة حـكيمـة في الدنيا، إذ أن هذا الرجل الذي أراد الاعـتداء لو أنه قُـتِل أو عوقب عقوبة بليغة لربما أحدث فتنة بإيغار صـدور أفراد قبيلته واستعدادهم للانتقام إذا سنحت لهم الفـرصة، لكن العفـو عنه يجعل أفراد قـبيلته وأبنـاء بلده يعذلونه ويعنفونه على ما حاول الإقدام عليه، وبذلك تنطفئ الفتنة قبل تصاعدها، ويكسب صاحب العفو قلوب الناس وولاءهم.

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثـير من رواية الإمام أحمد بإسناده: أن أبا هريرة رضي الله عنه كانت لهم زنجـية قد غمـتهم بعملهـا، فرفع عليها يومًـا السوط ثم قال: لولا القـصاص يوم القيامة لأغـشينَّك به، ولكن سأبيـعك ممن يوفيني ثمنك أحوج ما أكون إليه، اذهبي فأنت حرة لله عز وجل[2].

وهكذا يوازن أبو هريرة رضي الله عنه بين قـدرته على تلك الخادمـة وقدرة الله تعالى عليه، فـيفضل اتقاء سخط الله سبـحانه وعذابه على تنفيذ مقـتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلا من إساءتها، بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قـد جمع بين عدد من الأعمال الصالحـة.. خشية الله

(١) تاريخ المدينة المنورة/ ١٠٢٧ - ١٠٢٨.
(٢) البداية والنهاية ٨/ ١١٢.

تعالى، والعفو عن المسيء، والإحسان إليه، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه.

من مواقف معاوية رضي الله عنه:

وقال الحافظ ابن كثير: وقال العتبي: رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلامًا له فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتنى القدرة من الانتقام من ذوي الإحَن، وإن أحسن من عفا لَمَنْ قدر[1].

فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه لابنه يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم. . العفو عند المقدرة، هذا الخلق الذي يُعدُّ من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة، ولقد ذكَّره بقدرة الله جل وعلا عليه ليحطَّ من تعاظمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في بيان ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من الحلم، حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلاما سيئًا شديدًا، فقيل له: لو سطوت عليه! فقال: إني لأستحيي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي، وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إني لاستحيي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي.

وقال الأصمعي عن الثوري قال: قال معاوية: إنى لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أواريها بسترى.

قال وقال: ما يسرني بِذُلِّ الحلم عِزُّ النصر.

قال: وقال بعضهم: قال معاوية يا بني أمية فارقوا قريشًا بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتمًا وأوسعه حلما، فأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرما، وقال: آفة الحلم الذل.

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٢٧.

وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم.

قال: وقال رجل لمعاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفسًا حين يسأل، وأحسنهم في المجالس خلقا، وأحلمهم حين يستجهل.

قال: وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا:

فما قتَل السفاهة مثل حلم يعود به على الجهل الحليمُ

فلا تسْفَهْ وإن ملِّئتَ غيظا على أحد فإن الفحش لُؤْمُ

ولا تقطع أخًا لك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم

وقال: كتب معاوية إلى نائبه زياد: إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَل الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد بابا يدخل منه[1].

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه تبين لنا شيئًا مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته، أو يصارحونه -بقوة- بما يرونه حقًا وهو يخالفهم في ذلك.

وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه في تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة.

وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل، كما أن النصر يخالطه شيء من العز، ولكنه أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار.

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٨ - ١٣٩.

وفي كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التي تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ولكنها في الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة.

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة خلق الحلم، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان -يومًا وذكر معاوية فقال-: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه.

وقال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحدًا أعظم حلما، ولا أكثر سؤددا، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجا، ولا أرحب بالمعروف من معاوية.

وقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: لله در ابن هند، إن كنا لنُفْرقه[1] وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه ،وما ابن ليلةٍ من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتِّعنا به ما دام في هذا الجبل حجر-وأشار إلى أبي قبيس-[2].

وفي قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جريء شجاع، ولكنه يظهر الخوف عمدا ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدي لديهم، وهو أدهى أهل الأرض في زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، وهو في ذلك كله يخدم هدفا ساميا وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية.

ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده، ولقد قال ذلك مع أنه من الطموحين للخلافة لأنه نظر إلى مصلحة الأمة التي تتحقق ببقاء معاوية خليفة على المسلمين.

ويصف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سياسة معاوية بكلام موجز، لكنه يعني خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا[3].

---

(١) أي لنخيفه.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٣٨ - ١٣٩.

(٣) البداية والنهاية ٨/ ١٣٩.

وهذا يعني أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوي الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها، رضي الله عنه وعن الصحابة جميعًا.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في بيان ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه من مكارم الأخلاق قال: وقال الشعبي والأصمعي عن أبيه قالا: جرى بين رجل يقال له أبو الجهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو الجهم بكلام فيه غَمْزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية:

نميل على جوانبه كأنا ... نميل إذا نميل على أبينا

نُقلِّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرما ولينا[1]

وهكذا كان لحلم معاوية رضي الله عنه وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير في نفس أبي الجهم فقال هذين البيتين في شكر معاوية وبيان اتصافه بالكرم والسماحة.

ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقًا لقول الله تعالى ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال الحافظ ابن كثير: وقال عمر بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده قال: دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء، فنظر إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب عليه بالدِّرة فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين اللهَ اللهَ فيَّ، فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم: لِمَ ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله؟ فقال: والله ما رأيت إلا خيرا، وما بلغني إلا خير، ولو بلغني غير

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٢٨.

ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم، ولكن رأيتـه -وأشار بيده- فأحببت أن أضع منه ما شمخ[1].

ففي هذا الخبر موقفان: الأول صرامة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في حمل أمرائه على حياة التواضع والزهد، ولقد لاحظ شيئًا من الترفع في معاوية في ذلك اللباس الذي لبسه، فكان منه ذلك التأديب التربوي الذي أراد منه الحدَّ من ذلك السلوك الذي لاحظه على معاوية رضي الله عنه.

وحينما عذله في ذلك مَنْ حوله، وذكروا فضل معاوية على قومه أبان لهم أنه لم يغضب عليه لنقص في سياسته وإدارته، وأنه لو كان منه شيء من ذلك لكان له معه تصرف آخر، ويقصد بذلك عزله عن الولاية، وفي ذلك دلالة على ظهور تفوق معاوية في أعمال الولاية في السلم والحرب.

والثاني: موقف لمعاوية في الحلم والصبر، حيث لم يَبْدُ منه أيُّ تسخُّط مما حدث، بل كان يستعطف أمير المؤمنين ليخفف من غضبه عليه، مع أن في ضربه أمام الناس إهانة كبيرة له، لكنه يدرك أن أمير المؤمنين يقصد من ذلك صيانة أخلاق الإسلام التي يجب أن تتمثل أوَّلاً في الولاة ليقتدي بهم عامة الناس.

ونظرًا لحلم معاوية الكبير مع ما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أثنى عليه بقوله: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لَمَنْ يضحك في الغضب ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومَنْ لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه[2].

فهذا قول دقيق من عمر في وصف معاوية، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم، والعزة التي تجعله منيعًا لا ينال ما عنده على قهر منه، وهذه الصفة هي التي جعلته يبقيه أميرا على الشام لخطورة ذلك الثغر.

من مواقف الأحنف بن قيس رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: ومن كلامه وقد سئل عن الحلم ما هو؟ فقال: الذل مع الصبر، وكان إذا تعجب الناس من حلمه يقول:

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٢٨.
(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٢٤.

والله إني لأجد ما يجدون ولكني صبور، وقال: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال.

قال: وأغلظ له رجل في الكلام وقال: والله يا أحنف لئن قلت لي واحدة لتسمعنَّ بدلها عشرا، فقال له: إنك إن قلت لي عشرا لا تسمع مني واحدة[1].

ففي هذين الخبرين يفسر الأحنف بن قيس التميمي الحلم بأنه الذل مع الصبر، وهذا يعني أن الحلم يبدأ بالتهوين من شأن النفس وإذلالها ثم الصبر على الأذى، وذلك بأن يُصدر العقل السليم أمرًا للنفس بكبح جماحها عن سلوك سبيل الانتصار إلى الإيثار، والصبر على ما يقرع المسامع من الأذى، فالحلم يحتاج إلى قوة عظيمة في العقل لتحجيم النفس عن الاستسلام لعواطفها الجياشة والظهور أمام من صدر منه الأذى بعدم التأثر واحتواء الموقف، فالحلم على هذا إهانة للنفس، لكنه يورث عواقب حميدة من سمو العقل وعلو المنزلة، والسلامة من الآثار السيئة للاستجابة للغضب.

ويبين الأحنف للناس أنه يجد ما يجدون من التأثر بسماع ما يؤلم النفس لكنه يكبح جماح نفسه بالصبر.

ويبين أنه كسب بالحلم أنصارًا ممن يعادونه، وأن الذين كسب نصرتهم بإعجابهم بحلمه أكثر من الذين كسب نصرتهم بمحبتهم إياه بالأسباب الأخرى.

وفي الخبر الأخير مثل من حلمه مع الرجل الذي أغلظ له، فقد كان ذلك الرجل متوترا، وقد غاب عنه عقله السليم وحضرت نفسه الأمارة بالسوء، أما الأحنف فإنه قد أمات نفسه الأمارة بالسوء وأحيى عقله السليم، فكان جوابه لذلك الرجل استجابة لنداء عقله لا خضوعًا لعواطف نفسه.

وقد اشتهر الأحنف بالحلم حتى أصبح يضرب بحلمه المثل كما قال الشاعر أبو تمام في مدح الخليفة المعتصم العباسي:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

(١) البداية والنهاية ٨/ ٣٢٧.

والمراد بعمرو في هذا البيت عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان مشهوراً بالشجاعة، والمراد بحاتم أبو عدي حاتم الطائي المشهور بالسماحة والكرم، والمراد بإياس القاضي إياس بن معاوية وكان مشهوراً بالذكاء.

ومن أخبار الأحنف بن قيس في الحلم والأناة ما ذكره المؤرخ أبو العباس أحمد ابن محمد ابن خلكان في ترجمته قال: ثم إن عبيد الله [يعني ابن زياد أمير العراق] جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم عليَّ أوَّلاً فأوَّل على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إليَّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة.

قال: ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر من عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال لهم معاوية: اشهدوا عليَّ أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليَّ بعد ثلاثة أيام.

قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيَّن غيره، وسعوا في السِّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أوَّلاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصا، وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لِم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن ولَّيت أحدًا من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدَّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم.

قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا علي أني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي.

قال: فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل -يعني الأحنف- فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عونًا وذخرًا.

قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره[1].

في هذا الخبر موقفان:

الأول لمعاوية رضي الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس رحمه الله وأدرك رفعة منزلته، فرفعه وأدناه منه وأظهر له كثيرًا من الاهتمام والاحترام، وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يُعدُّ من السياسة الجيدة في احتواء أهل القوة والتأثير على الناس.

والثاني في بيان ما كان يتصف به الأحنف من الحلم والأناة وبُعْد النظر، فهو لم يُظهر أيَّ شيء من الغضب حينما أبعده عبيد الله بن زياد وقرَّب من أهل العراق من هم أقل شأنًا منه، ومع أن عبيد الله قد تجاهله فإنه قد رشح عبيد الله لإمرة العراق لما يرى فيه من السداد، وأنه الرجل الذي يمكن أن ترضى به الطوائف المتعددة، وفي هذا تقديم للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

وكان الأحنف قد ساد قومه بمكارم الأخلاق، ومما روي في ذلك ما ذكره المؤرخ ابن خلكان في ترجمته من خبر معاوية بن هشام أنه قال لخالد بن صفوان: بِمَ بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ؟ قال: إن شئت حدثتك ألفًا، وإن شئت حذفت الحديث لك حذفا، قال: احذفه لي حذفا، قال: وإن شئت فثلاثا، وإن شئت

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٣ - ٥٠٤.

فاثنتين وإن شئت فواحدة، قال: ما الثلاث؟ قال: كان لا يشره ولا يحسد ولا يمنع حقا، قال: فما الثنتان؟ قال: كان موفقًا للخير معصومًا عن الشر، قال: فما الواحدة؟ قال: كان أشد الناس على نفسه سلطانًا[1].

وهذه أخلاق كلها تؤهل للسيادة، وخاصة ما ذكر من امتلاكه نفسه، وإن من أهم ما ينزل من قدر الرجال فلتات ألسنتهم والهفوات في سلوكهم.

من مواقف أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله:

ومن أخبار الولاة المتصفين بالحلم والأناة ما ذكره الحافظ ابن كثير عن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، حيث قال فيه: وكان فيه حلم وأناة، شَتَم مرة رجلا من الأشراف فقال أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحيى وقال: اقتص مني بدلها- أو قال مثلها- فقال: إذًا أكون سفيهًا مثلك، قال: فخذ عوضا، قال: لا أفعل، قال: فاتركها لله، قال: هي لله ثم لك، فقال هشام عند ذلك: والله لا أعود إلى مثلها[2].

فهذا مثل في الحلم والوقار، وإذا كان هشام بن عبد الملك قد زل لسانه بقول ما لا يحمد فإنه قد أنصف من نفسه بالاعتذار من الخطأ، وهذا دليل على تواضعه وعلو تفكيره حيث قدم رعاية مكارم الأخلاق على النظر إلى حظ نفسه ومجده الدنيوي.

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله:

من أخبار الحلم والعفو ما ذكر عن محمد بن رباح الجوهرى قال: ذُكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبد الملك في حرب كانت له، فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرصافة -رصافة هشام- يسأله عن تلك الحرب، فقدم عليه، فقال: أنت صاحب هشام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأخبرني كيف فعل في حرب دبَّرها في سنة كذا وكذا؟ قال: إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا، ثم أتبع بأن قال: فعل كذا رضي الله عنه، فأحفظ ذلك المنصور فقال: قم عليك غضب الله! تَطَأُ بساطي وتترحم على عدوي! فقام الشيخ وهو يقول: إن لعدوك قلادةً في عنقي ومنَّةً في رقبتي لا ينزعها عني إلا غاسلي.

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٠.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٦٦.

فأمـر المنصور بردِّه وقال: اقـعد، هيه كـيف قلت: فقلت إنه كـفاني الطلب، وصان وجهي عن السؤال، فلم أقف على باب عـربي ولا أعجمي منذ رأيته، أفلا يجب علي أن أذكره بخـير وأُتبعـه بثنائي! فقال: بلى، لله أمُّ نـهضت عنك وليلةٌ أدَّتْك، أشهد أنك نَهيضُ حرَّة وغراس كريم.

ثم استمع منـه، وأمر له ببرّ، فقال: يا أمـير المؤمنين ما آخذه لحـاجة وما هو إلا أني أتشرف بحبائك وأتبجَّح بصلتك، فأخذ الصلة وخرج، فقال المنصور: عند مثل هذا تحسن الصنيعة ويوضع المعروف ويُجَاد بالمصون، وأين في عسكرنا مثله![1].

ففي هذا الخبر موقفان: الأول موقف صاحب هشام الذي حفظ المعروف ولم ينس الجمـيل، فأثنى على صاحبـه في بلاط حاكم قد عـادى صاحبه وأزال دولتـه، وكونه صـرح بذلـك الثناء وهو في ذلك المكـان دليل على اتصـافـه بخلق الوفـاء وخلق الشجاعة.

والموقف الثاني: موقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور الذي بهرته أخلاق ذلك الرجل فـأثنى عليه ذلك الثناء الـعاطر، ولم تأخـذه العزة بالإثم فـيلجأ إلى قـوته وهيمنته وينتقمَ من ذلك الرجل، بل غلَّب عقله الرشيد على عاطفته وازْدَان بخلق الحلم والإنصاف فأثنى على ذلك الرجل ووصله.

ومن مكارم الأخلاق في مـجال الحلم والعـفو عند المقدرة مـا ذكره أبو جعـفر الطبري من خبر داود بن رشيد عن أبيه أن المنصـور خطب فقال: الحمد لله أحمده وأستعـينه وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له.. فاعـترضه معـترض عن يمينه، فقـال: أيها الإنسان أُذكِّرك من ذكَّـرت به.. فقطع الخطبة ثم قال: سمعًا سمعًا لمن حفظ عن الله وذكَّر به، وأعوذ بالله أن أكون جبارًا عنيدًا، وأن تأخذني العزة بالإثم، لقد ضـللتُ إذًا وما أنا من المهتدين، وأنت أيها القائل فـوالله ما أردتَ بها وجه الله، ولكنك حـاولت أن يقال: قام فقـال فعوقب فصـبر، وأَهْونْ بها ويلك لو همـمت، فاهْتَبِلْهـا إذ غفَرْت، وإياك وإياكم معـشر الناس أختَهـا، فإن الحكمة علينا نزلت، ومن عندنا فصـلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده، وتصـدروه مصادره، ثـم عاد في خطبتـه فكأنه يقرؤها من كـفه، فقال: وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله[2].

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٨- ٧٩.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٩٠.

فهذا الخبر يشتمل على مجموعة من الأخلاق تخلَّق بها أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور، حينما سمع كلام ذلك الرجل المعترض عليه في خطبته. . من الصبر على الأذى والحلم والعفو عند المقدرة، إلى جانب اتِّصافه بالفصاحة والمقدرة البيانية، وهذه من دلائل عظمته ونبوغه، ولقد كانت هذه الأخلاق والصفات وغيرها من فضائله أثرًا ظاهرًا للتربية العلمية الدينية التي تلقَّاها على يد شيوخ العلم الربانيين المربين، فقد جالس العلماء طويلا حتى أصبح معدودا منهم لولا اشتغاله بسياسة أمور الأمة.

ومن مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور في الحلم والعفو ما ذكره الإمام محمد بن جرير الطبري عن الفضل بن الربيع عن أبيه أنه قال: بينا أنا قائم بين يدي المنصور أو على رأسه إذا أُتِي بخارجيّ قد هزم له جيوشا، فأقامه ليضرب عنقه، ثم اقتحمته عينه فسب أمه وقال: مثلك يهزم الجيوش! فقال له الخارجي: ويلك وسوءة لك! بيني وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب، وما كان يؤمِّنك أن أرد عليك وقد يئستُ من الحياة فلا تستقيلها أبدا! قال: فاستحيى منه المنصور وأطلقه، فما رأى له وجهًا حولا[٢].

فهذا رجل قد أعلن الحرب على دولة أبي جعفر المنصور، وهذا يعني أنه يريد قتله وقتل رجال دولته وإزالة ملكه، وكان جزاؤه أن قدمه المنصور للقتل لما ظفر به، ولكنَّ فلتةً من لسان المنصور أنقذت ذلك الرجل، فالرجل محارب ولا يعترض على الانتقام منه بالقتل، لأنه لم يخرج إلا وقد وطن نفسه لذلك، ولكنه لم يحتمل قذف وسب أمه، لأن أمه لا علاقة لها بما حدث، فسبها وقذفها من اتهام الأبرياء، وقد ذكَّر هذا الرجل الخارجي المنصور بأنه باستطاعته أن يرد عليه بسباب يعلق بأذهان الناس، فيتمنى المنصور أنه سلم من إثارة ذلك الرجل، ولن يفعل المنصور به أكثر من القتل، ولن يمنعه من ذلك رجاء الحياة لأنه قد يئس منها، وقد استحيى المنصور من ذلك الجواب الذي يدل على أدب رفيع من ذلك الخارجي، حيث لم يأبه بالقتل وغضب من سماع قذف أمه، وهذا يدل على نبل المنصور وحلمه، حيث قدر هذا التفكير العالي من ذلك الرجل فعفا عنه وأطلقه.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٦٨.

من مواقف الوزير يحيى بن هبيرة رحمه الله:

من الأخلاق العاليـة التي كان يتحلى بها الوزير أبو المظفر يحيى بـن محمد بن هبيرة في الحلم والعفو عند المقدرة ما رواه الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي نقـلا عن ابن الجوزي قال: كنا نجلس إلى الوزير ابن هبيـرة فيملي علينا كتابه «الإفصاح» فبينا نحن كذلك إذ قدم رجل ومعه رجل ادَّعى أنه قتل أخاه فقال له عـون الدين: -يعني ابن هبيرة- أقتلته؟ قـال: نعم، جرى بيني وبينه كلام فقتلتـه، فقال الخصم: سلِّمه إلينا حتـى نقتله فقد أقرَّ بالقتل، فـقال عون الدين: أطلقوه ولا تقتلوه، قالوا: كيف ذلك وقد قتل أخانا؟ قال: فتبيعونه؟ فاشتراه منهم بست مائة دينار وسلم الذهب إليـهم وذهبوا، فقال للقاتل: اقـعد عندنا لا تبرح، قال: فجلس عندهم وأعطاه الوزير خمسين دينارا، فقلنا للوزير: لقد أحسنت إلى هذا وعملت معه أمرًا عظيمًا، وبالغت فى الإحسان إليه، فقال الوزير: منكم أحد يعلم أن عـيني اليمنى لا أبصـر بها شـيئًـا؟ فقلنا: مـعاذ الله، فقـال: بلى والله، أتدرون ما سبـب ذلك؟ قلنا: لا، قال: هذا الذي خلصته من القـتل جاء إليَّ وأنا في الدُّور ومعي كـتاب من الفقـه أقرأ فيـه ومعه سلَّة فاكـهة، فقـال: احمل هذه السلة، قلت له: مـا هذا شغلي فـاطلب غيـري، فشـاكلني ولكمني فقلع عـيني ومضى ولم أره بعـد ذلك إلى يومي هذا، فذكرت ما صنع بي، فـأردت أن أقابل إساءته إليَّ بالإحسان مع القدرة[1].

فهـذا مثل جـليل في مكارم الأخلاق، وذلك في العـفو عند المـقدرة ومبـادلة الإساءة بالإحـسان، فلقد كان الوزير عـون الدين ابن هبيرة قـادرًا على أن يعاقب ذلك الرجل بأن يقتصَّ منه كما اعتدى عليـه ثم يقيم عليه حد القتل الذي أقرَّ به، أو على الأقل أن يقيـم عليه هذا الحد وهو يتـشفَّى منه، ولكنه لما رأى مـجالا من مجالات الأخلاق العالية بادر إلى العفـو عند المقدرة والإحسان إلى من أساء إليه، وهكذا تسمـو النفوس الطموحـة إلى معالـي الأمور، وذلك بتحـجيم هوى النفس والتـخلص من رواسب حب الذات، وذلك بشـراء المعاني السـامـية والمُثُل العليـا بعَرض الدنيا الزائل.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٥٧.

توجيهات ومواقف
في
التواضع والرحمة

أمثلة من تواضع النبي ﷺ ورحمته:

رُويتْ أحاديث كثيرة في تواضع النبي ﷺ وحثه على التواضع، فمن ذلك ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة[1]، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير»[2].

فهكذا كان ﷺ في تواضعه في حياته الاجتماعية ولم يكن كزعماء فارس والروم في زخرفهم ومظاهرهم في الجلوس والأكل، أما حلب الشاة فإنه مظهر من مظاهر التواضع الكبير، لأن الكبراء لا يفعلون ذلك، وكذلك إجابة دعوة المماليك ونحوهم من الفقراء.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان لا يأكل متكئًا ولا يطأ عقبه رجلان»[3].

فهذا الحديث يشتمل على صفتين من صفات التواضع.

الأولى: أنه ﷺ كان لا يأكل متكئًا، وأكل الإنسان وهو متكئ له سلبيات، منها أن الاتكاء من جلسات الراحة، والإنسان وهو يأكل من نعمة الله تعالى ينبغي له أن يتواضع حتى يكون شاكرًا لله جل وعلا على نعمته، ومنها أن الإنسان قد يتضرر من الأكل وهو متكئ، لأنه يفقد الاعتدال في الجلسة الذي يجعل مجرى الطعام غير طبيعي، ولذلك قد يَشْرق الإنسان بالماء إذا شربه وهو متكئ.

الثانية: أنه ﷺ لم يكن يطأ عقبه رجلان، بمعنى أنه لم يكن يأذن للناس أن يمشوا خلفه، فهذا من تواضعه الجم، فلو أنه أذن للصحابة رضي الله عنهم أن يتبعوه لأوعب أكثرهم خلفه احترامًا له وتعظيمًا، ولكنهم لم يكونوا يفعلون ذلك لما يعلمون من كراهيته إياه.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم»[4].

---

(١) وقوله «ويعتقل الشاة» يعني ويحلب الشاة..

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٧٩١.

(٣) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٧١٦.

(٤) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٨١٣.

فهـذه أمثلة من تواضعه ﷺ، حـيث يقوم بشؤونه في البـيت بنفسه مع كـثرة مشاغله والتزاماته، ومن صفات العظمة في الرجل أن لا تشغله الأمور الكبيرة عن الأمور الصغيرة.

ومن ذلك ما أخرجـه الحافظ الترمذي وحسنه من حديث مـعاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنـه: أن النبي ﷺ قال: «**من ترك اللبـاس تواضعًا لله وهـو يقدر عليه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها**».

وقوله «**من أي حلل الإيمان**» قال أبو عيسى الترمذي: يعني ما يعطي أهل الإيمان من حلل الجنة[1].

فهذا الحديث فيه ترغيب عظيم على التـواضع في اللباس، ببيان ما سيحظى به المتـواضع من ثواب جزيل في الجنة، وأن الثـمن الذي يقـدمه المسلم لشـراء تلك السلعة الغالية هو أن يترك اللباس الفاخر وهو يملك ثمنه تواضعًا وزهدًا في مظاهر الدنيا، فما أرخص الثمن وما أعظم المثمن!!

ومن ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود رحمهـما الله من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال قـال رسول ﷺ «**إن الله تعـالى أوحى إلي: أن تواضـعوا حـتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[2].

فقد أمرنا رسـول الله ﷺ بالتواضع للمؤمنين، وذكر نتيجـتين من نتائج الكبر، الأولى الفخـر بأمور الدنيا كـالنسب والمال والجاه، والثـانية البغي والاعـتداء على الناس. والاتصاف بالتـواضع يمنع المسلم من الوقوع في تلـك المفسدتين المتـرتبتين على الكبر.

ومن ذلك ما أخـرجه مسلم رحمـه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مانقصت صـدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفـو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[3].

(١) سنن الترمذي، رقم ٢٤٨١، كتاب صفة القيامة باب ٢٩ (٤/ ٦٥٠).

(٢) صحيح مسلم، رقم ٢٨٦٥، كتاب صفة الجنة (ص ٢١٩٩) سنن أبي داود، رقم ٤٨٩٥، كتاب الأدب، باب في التواضع.

(٣) صحيح مسلم، رقم ٢٥٨٨، كتاب البر (ص ٢٠٠١).

فهذا جـزاء عظيم لعمل يسير على من يسره الله تعـالى عليه، وهل يريد المسلم أعظم من رفعة الدرجات يوم القيامة؟!

مما روي عن رسـول الله ﷺ في خلق التواضع - إضـافة إلى مـا مر مـعنا من ذلك في استعراض سيرته الشريفة - ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا استقـبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُرَ مقدِّما ركبته بين يدي جليس له»[1].

وهذه آداب إسلامية رفيـعة مبعثها التواضع، ويشملـها خلق الإيثار، فهي تقوم على اعتبار تقديم الغير على النفس في أمور الحياة، سواء في ذلك الأمور المعنوية، التي تقـتضي إعـزاز الآخرين والرفع من مـكانتهم كـما في هذا الحـديث، أو في الأمور المادية التي تقوم على التنازل عن الحقوق المالية لمصلحة الآخرين.

ومن الأمثلة التربوية العـالية المبنية على الرحمة والتواضع ما أخـرجه أحمد من حديث عبـد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال: خـرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتـي العشي الظهر أو العصـر وهو حامل الحسن أو الحسين، فـتقدم ﷺ فوضعـه ثم كبر للصـلاة، فصلى فسجـد بين ظهراني صلاته سجـدة أطالها، فقال: إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت في سجـودي، فلما قضى رسـول الله ﷺ الصلاة قـال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صـلاتك هذه سجدة قد أطَلْتها فظنـنا أنه قد حدث أمر أو أنه قد يُوحَى إلـيك، قال: «**فكل ذلك لم يكن، ولكـن ابني ارتحلني فكرهت أن أعـجله حتى يقضي حاجته**»[2].

وأخرج الإمـام البخاري من حـديث أبي قتادة رضي الله عنه قـال: خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص[3] على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها[4].

---

(١) سنن الترمذي رقم ٢٤٩٠، القيامة ب ٤٦ (٤/ ٦٥٤).

(٢) مسند أحمد ٣/ ٤٩٤ .

(٣) يعني بنت زينب بنت النبي.

(٤) صحيح البخاري، رقم ٥٩٩٦، الأدب (١٠/ ٤٢٦).

وهذا منهج تربوي في غاية الرفعة والكمال، فهو يعطي الصغار حقوقهم الكاملة في العناية والرعاية فينشؤون بنفوس كبيرة وشخصيات قوية تستطيع بعد تهذيب التربية الدينية أن تتحمل المسؤوليات الكبيرة، ولكن هذه التربية العالية لا يقوى عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة الذين يتواضعون ويبذلون من وقتهم لإنشاء جيل يتحمل المسؤولية في تبليغ هذا الدين وتطبيقه.

وهذا الخلق العالي يكون مبنيًا على الرحمة، وإنما يتصف بذلك من قويَ إيمانهم وهذب الإسلام نفوسهم، ولقد كان لرسول الله ﷺ من ذلك النصيب الأكمل، فجاءت معاملته للصغار في غاية الكمال التربوي.

وإذا كانت هذه معاملته للأطفال وهو في صلاته وقد انشغل قلبه بما هو أعظم من ذلك، فكيف تكون معاملته إياهم خارج الصلاة؟!

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا، فنظر إليه النبي ﷺ ثم قال: من لا يَرحم لا يُرحم.

وأخرجا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا والله ما نقبِّل، فقال رسول الله ﷺ: **وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة؟**[1].

وأخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، قال: كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخَّن - وكان ظئره قينا[2] - فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع[3].

---

(١) صحيح البخاري رقم ٥٩٩٧، ٥٩٩٨، الأدب (١٠/٤٢٦)، صحيح مسلم رقم ٢٣١٨، ٢٣١٧، الفضائل (ص ١٨٠٨).

(٢) أي كان زوج مرضعة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ صانعًا فكان في البيت دخان من النار التي يوقد بها علي الحديد.

(٣) صحيح مسلم رقم ٢٣١٦، الفضائل (ص ١٨٠٨).

فهذه أمثلة من رحمة النبي ﷺ بالصغار، والأطفال بحاجة ماسة إلى رحمة الكبار لأنهم في حال ضعف، وفي مرحلة الطفولة تتشكَّل بداية الأخلاق التي سيكون عليها الأطفال إذا كبروا، فإذا كانوا يعاملون في صغرهم بالمودة والرحمة واللطف فإنهم ينشؤون على هذه الأخلاق الكريمة، فيتعاملون بها إذا كبروا، ويعاملون بها صغارهم، وهكذا ينشأ شباب الأجيال في حال رشدهم على ما نشؤوا عليه في حال طفولتهم، وتتم بذلك حلقات من التربية الإسلامية على مكارم الأخلاق.

ونجده ﷺ يتواضع لمن يستخدمهم ويعاملهم بالعناية والرعاية كما يعامل أبناءه كما جاء فيما أخرجه الإمام أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، قال: فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق فإذا النبي ﷺ قابض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: **يا أنيس اذهب حيث أمرتك**؟ قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين - أو تسع سنين - ما علمت قال لشيء صنعت لِمَ فعلت كذا وكذا؟ ولا لشيء تركت هلا فعلت كذا وكذا»[1].

وهل نجد مثلا أعلى من هذا في معاملة الخدم؟!

إن هذه المعاملة الكريمة تُشعر الإنسان المستخدم بكرامته وإنسانيته ولا تلغي وجوده في المجتمع كإنسان يسهم في بناء المجتمع، والترقي به نحو الكمال، وهو حينما يخدم أهل النبل والفضل فإنما هو تلميذ في مدرسة تربوية أخلاقية، ومن المفترض أن يتخرج من هذه المدرسة وهو أعلى ما يكون في سمو الفكر ونبل الأخلاق.

ومن أمثلة تواضعه ﷺ ما أخرجه البخاري من حديث مجاهد بن جبر أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول «آلله الذي لا إله إلا هو، إن كنتُ لأعتمدُ بكبدي

(١) سنن أبي داود رقم ٤٧٧٣، الأدب باب ١ (٥/ ١٣٢).

على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجرَ على بطني من الجوع. ولقد قعدْت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألتـه إلا ليُشبعني، فمر ولم يفـعل، ثم مرَّ بي عمر فسألتـه عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني وعرف مـا في نفسي وما في وجـهي، ثم قال **يأبا هرّ**، قلتُ: لبـيك رسول الله، قال: **الحَقْ**، ومضى، فتبعته، فدخل فاستأذن فأذن لي، فدخل فوجد لبنًا في قدح فقال: **من أين هذا اللبن؟** قالوا: أهداهُ لك فلان - أو فـلانة - قال: أبا هرّ، قلت لبيك يا رسول الله، قال: **الحق إلى أهل الصُّفة فادْعُهم لي**. قال: وأهلُ الصفة أضياف الإسلام، لا يأوُون على أهل ولا مال ولا عـلى أحد، إذا أتتهُ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فـقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنتُ أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شَربةً أتقوَّى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يَبُلغَني من هذا اللبن، ولـم يكن من طاعة الله وطاعـة رسوله ﷺ بُدّ، فـأتيتـهم فدَعَوتهم، فأقـبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجـالسهم من البيت. قال: **يا أبا هرّ**، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **خذ فأعطهم**، فأخذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجل فـيشـربُ حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القـدح فأعطيـه الرجل فيـشربُ حـتى يروى، ثم يرد عليَّ القـدح، فـيشـرب حتى يروى، ثـم يردُّ عليَّ القدح، حـتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتـبسم فـقال: **أبا هر**، قلت لبيك يا رسـول الله، قال: **بقيتُ أنا وأنت**، قلتُ صدقت يا رسـول الله، قال: اقعد فـاشرب، فقـعدتُ فشربت، فـقال: **اشرب**، فشربت، فـمازال يقول: **اشرب**، حتى قلتُ: لا والذي بعـثك بالحق، ما أجدُ له مسلكًا. قال: **فأرني**، فأعطيته القدح، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة»[1].

فهذا حديث عظيم يبين لنا عددًا من الأمور المهمة:

فهو يبين أولاً وصفًا لسنوات من حياة الصـحابة رضي الله عنهم عاشوا فيها في شظف من العيش وتعرضوا للجوع الشديد فصـبروا على ذلك صبرًا جميلا، وكان

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٤٥٢، الرقاق (١١/ ٢٨١).

السبب الأساسي في ذلك هو هجرتهم إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، حيث هاجروا من بلدانهم إلى المدينة وتركوا أموالهم في بلادهم وراء ظهورهم، فتحوَّلوا فجأة من أغنياء أو متوسطي الحال إلى فقراء لا يجدون ما يكفي لضرورة المعيشة، ولم يكن ذلك التحوُّل المفاجئ بالذي يشدهم إلى العودة إلى حياة الرخاء ويهوِّن من عزائمهم في البقاء على هجرتهم، ذلك لأنهم يحملون معاني سامية وأهدافًا عالية تشدهم إلى البقاء وتلغي من أفكارهم النظر إلى الماديات وإن كانت في محيط الضرورات.

ويبين لنا هذا الحديث ثانيًا مثلاً من رحمة النبي ﷺ حيث قام بمواساة أولئك الكرام الذين ضحوا بسعادتهم المادية في مقابل الظفر بالسعادة الروحية فهاجروا من بلادهم وتركوا أموالهم، فحينما وجد ذلك اللبن تذكَّر على الفور أصحاب الصُّفَّة الذين يمسُّهم الجوع أحيانًا فاستدعاهم ليشاركوه وأبا هريرة في ذلك اللبن، فهذا مثل بليغ في المواساة الرحيمة والشعور بالمسؤولية عن المسلمين الذين قعدتْ بهم ظروفهم المعيشية عن تحصيل القدْر الضروري للحياة الكريمة.

ويبين لنا هذا الحديث ثالثًا أن من مظاهر السمو الفكري والشفافية الحانية في المشاعر أن يتلمس القائد احتياج المحتاجين وإن كانوا في حال غياب عن ناظرَيْه وأن لا يقتصر في نظراته ومشاعره على من حضر عنده أو جمعتْه بهم المجامع، فليس حضور الحاضرين بالذي يرفع من مستوى احتياجهم، وليس غياب الغائبين بالذي يخفض من ذلك، وليست مقاصد مجاملة الحاضرين بالتي تغلب على مقاصد مواساة ذوي الحاجات من الغائبين عند العظماء الذين بلغوا كمال الرقي الأخلاقي.

إن الذي ينظر في تقييم الأمور إلى عالم الحس والمشاهدة ويغفل عن عالم الغيب يكون تأثره بجوانب طلب المحمدة والمجاملة أكثر من تأثره بجواذب العاطفة والوجدان.

وإنه من أجل ملاحظة هذه المعاني الكريمة والمقاصد النبيلة نجد أن النبي ﷺ قد صبر على احتمال منظر أبي هريرة وهو يتلوَّى من الجوع من أجل أن يشبع بطونًا أخرى جائعة قد غابت عن ناظرَيْه ولكنها كانت مهيمنة على مخيلته وتفكيره ليُحيْلَ أكبر عدد ممكن من حياة البؤس إلى حياة السعادة وليرى في قسمات وجوههم مظاهر البشر والفرح بدلاً من أن يرى ذلك في وجه رجل واحد.

وإذا كان أبو هريرة قد ركَّز في هذا الخبر على نفسه فإنما كان مدفوعًا إلى ذلك بما كان يعانيه من جوع منهك قد جعله أسير النظر إلى تلبية الضرورة التي كان يعاني منها، إضافة إلى ما يراه من قلة اللبن الذي لا يزيد عن كفاية اثنين وعدم تصورٍّه - مع تلك الحال من الاضطرار - أنه أمام نبي عظيم قد حباه الله تعالى بالمعجزات الخارقة التي منها تكثير الطعام والشراب بين يديه.

وأخيراً فإن هذا الحديث.

مثل بليغ على تواضع رسول الله ﷺ حيث شرب آخر القوم، وأهل الصفة كانوا كلهم من الفقراء، وإن التواضع يكون جليلا إذا صدر من الرجل الكبير لضعفاء الناس ومساكينهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ عظيم التواضع لجميع الناس على مختلف طبقاتهم.

ولقد امتد تواضعه ﷺ ليشمل البادية كما شمل الحاضرة، ومن ذلك ما أخرجه الإمامان البزار والطبراني من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أشجع يقال له زاهر بن حرام رجل بدوي، وكان لا يزال يأتي النبي ﷺ بطُرفة أو هدية، فرآه النبي ﷺ في سوق المدينة يبيع سلعة، ولم يكن أتاه في ذلك الوقت، فاحتضنه من وراء كتفه، فالتفت فأبصر النبي فقبَّل كفه، فقال: **من يشتري العبد؟** فقال إذًا تجدني يا رسول الله كاسدًا، قال: **لكنك عند الله ربيح**، فقال ﷺ: **لكل حاضر بادية، وبادية آل محمد زاهر بن حرام**»[1].

وهذا مثل عال للمزح التربوي، الذي يهدف إلى رفع الكلفة، وتوثيق الصلة، فإن الإنسان إذا منَّ الله عليه بالسمعة العالية، والمكانة الرفيعة، تكون له في النفوس هيبة قد تمنع من الاستفادة منه فيما إذا كان مسئولاً إداريًا، أو عالمًا مربيًا، وقد تمنعه من الاستفادة من الناس في فهم واقع المجتمع الذي تنبني عليه بعض الفتاوى والأحكام، فإذا جرى من المسؤول أو العالم المربي نوع من هذا المزح الهادف فإنه يفتح مغاليق النفوس ويزيل الحرج من الصدور.

وهذا المزح التربوي إنما يكون مبنيًا على الرغبة الصادقة في إصلاح المجتمع وتقويمه مع التخلق بخلق التواضع.

(١) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٢/ ٥٦٥ - ٥٦٦، رقم ٨٩٤٨ .

ونجد رسول الله ﷺ يجعل من نفسه مثلاً عالياً في التواضع لرعيته الذين ولاه الله أمرهم حيث يقول له عمه العباس رضي الله عنه: إني رأيتهم قد آذوك وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشًا تكلمهم منه، فقال: «**لا أزال بين أظهرهم يطؤون عقبي وينازعوني ردائي حتى يكون الله هو الذي يريحني منهم**» أخرجه الإمام الدارمي[1].

وهي سنة يسنها رسول الله ﷺ للولاة والمربين من بعده حيث تواضع لأفراد أمته، فعاش معهم كواحد منهم ولم يرض أن يتميز عليهم بشيء.

وإن التواضع لله أولاً ثم للمخلوقين دليل على سمو الفكر وكمال العقل، ولذلك جاءت توجيهات النبي ﷺ بالتخلق بهذا الخلق الرفيع، وذلك لأن الشريعة الإسلامية جاءت من عند الله تعالى لترفع من مستوى العقل البشري ولتميز أصحاب الأفكار السوية وتوجههم نحو الإصلاح والقيادة التربوية.

وتذكر عائشة رضي الله عنها وصفًا جامعًا لما يتصف به رسول الله ﷺ من السماحة والتواضع والإيثار حيث تقول: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها» أخرجه الإمامان البخاري ومسلم[2].

وهذا مثل رفيع من أمثلة التواضع والسماحة والتجرد من حظ النفس، فإن النفوس مجبولة على الغيرة لحرماتها، والعمل لجلب حظوظها، ولكن كلما قوي الإيمان بالله تعالى تضاءلت الأنانية وقوى خلق الإيثار، حتى إذا بلغ الإيمان كماله لم يَعُد في تفكير الإنسان نظر لحظ النفس وأصبح يعيش لإخوانه ومجتمعه الإسلامي، ولقد بلغ رسول الله ﷺ أعلى درجات الإيمان، فليس غريبًا أن يكون أعلى نموذج في هذه الأرض لتمثيل مكارم الأخلاق.

ولم تقتصر رحمة النبي ﷺ على الإنسان، بل تجاوزت ذلك إلى الحيوان، فمن ذلك ما أخرجه الإمام أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرةً معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تُعَرِّش[3]، فجاء النبي ﷺ فقال: **من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**.

(١) سنن الدرامي رقم ٧٥، المقدمة باب ١٤.

(٢) صحيح البخاري، رقم ٣٥٦٠، المناقب (٦/٥٦٦)، صحيح مسلم رقم ٢٣٢٧، الفضائل (ص ١٨١٣).

(٣) يعني ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها.

قال: ورأي قرية نمل قد حرقناها، فقال: **من حرق هذه؟** قلنا: نحن، **قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**[1].

وأخرج أبو داود أيضًا من حديث عامر الرام أخي الخضر رضي الله عنه قال: إني لببلادنا إذ رُفعت لنا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله ﷺ فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسط له رداء وهو جالس عليه وقد اجتمع إليه أصحابه... ثم ذكر خبرًا إلى أن قال: فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال: يا رسول الله إني لما رأيتك أقبلت فمررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن، فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي، فقال **ضعهن عنك**، فوضعهن وأبَتْ أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **أتعجبون لِرَحْم أم الفراخ فراخها؟** قالوا: نعم يا رسول الله، قال: **فو الذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن، فرجع بهن**[2].

وأخرج أبو داود أيضًا من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحبُّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْراه[3] فسكت، **فقال: من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟** فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، **قال: أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكَى إلي أنك تجيعه وتُدْئبه**[4] [5].

وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه[6].

---

(١) سنن أبي داود رقم ٥٢٦٨، كتاب الأدب (٥/ ٤١٩).

(٢) سنن أبي داود رقم ٢٩٦٣، أول كتاب الجنائز (٢٧٣٤).

(٣) أي مؤخر رأسه.

(٤) يعني تتعبه في العمل.

(٥) سنن أبي داود رقم ٢٤٣٩، كتاب الجهاد (٣/ ٣٨٦).

(٦) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣/ ١٧٥٥ رقم ١٧٥٤ .

وفي هذه الأخبار وغيرها تعليم من رسول الله ﷺ لأمته بوجوب الرفق بالحيوان وعدم إيذائه، ولزوم التيسير عليه في العمل وتوفير الغذاء الكافي له، فليعلم الذين يظنون أن الدول الغربية هي أول من أنشأ جمعيات الرفق بالحيوان بأن الإسلام قد سبقهم بتوجيه جميع أفراد الأمة الإسلامية إلى الإحسان إلى جميع الأحياء، وتوفير الحياة الملائمة لكل حي بلا ظلم ولا تقصير.

من مواقف الخليفتين أبى بكر وعمر رضي الله عنهما:

من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها.. وذكرت خبر غزوة الأحزاب وبني قريظة وخبر استشهاد سعد بن معاذ رضي الله عنه من أثر الجرح الذي أصابه.. إلى أن قالت: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩][1].

إننا لنجد في هذا الخبر صورة من تآلف الأرواح بين الصحابة رضي الله عنهم، وبروز مظاهر الرحمة والعطف في مجتمعهم.

وهو مظهر من مظاهر الحب في الله تعالى والإخاء الإيماني، فإن سعد بن معاذ الأنصاري ليس بينه وبين أبي بكر وعمر قرابة ولا نسب إلا نسب الإيمان الذي جمع بين القلوب المختلفة وكوَّن منها مجتمعًا قويًا متماسكًا، رضي الله عن الصحابة أجمعين.

وهو أيضًا مظهر من مظاهر الاعتراف بفضل ذلكم المؤمن المجاهد حيث تتسلسل أحداث جهاده على شريط الذاكرة فتنعكس صورتها في تأثر ضاغط تَشِفُّ له النفوس وتتحدر له الدموع.

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه:

ومن مواقف الرحمة والتواضع ما رواه أبو عبيد بن سلام بإسناده قال: بينا عمر نِصْفَ النهار قائل في ظل شجرة، وإذا أعرابية فتوسمت الناس، فجاءته فقالت:

(١) مسند أحمد ٦/ ١٤٢

إني امرأة مسكينة ولي بنون، وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد ابن مسلمة ساعيًا[1] فلم يعطنا، فلعلك - يرحمك الله - أن تشفع لنا إليه!

قال: فصاح بيرفأ[2]: أن ادْعُ لي محمد بن مسلمة، فقالت: إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه، فقال: إنه سيفعل إن شاء الله، فجاءه يرفأ فقال: أجب، فجاء فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، فاستحيت المرأة، فقال عمر: والله ما آلو[3] أن أختار خياركم، كيف أنت قائل إذا سألك الله عز وجل عن هذه؟! فدمعت عينا محمد، ثم قال عمر: إن الله قد بعث إلينا نبيه ﷺ فصدقناه واتبعناه، فعمل بما أمره الله به، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتى قبضه الله على ذلك، ثم استخلف الله أبا بكر فعمل بسنته حتى قبضه الله، ثم استخلفني فلم آلُ أن أختار خياركم، إنْ بعثتك فأدِّ إليها صدقة العام وعام أول، وما أدري لعلي لا أبعثك، ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقًا وزيتًا، وقال: خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر فإنا نريدها، فأتته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين وقال: خذي هذا فإن فيه بلاغًا حتى يأتيكم محمد بن مسلمة، فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول[4].

فهذا مثل رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وعطفه على الضعفاء، حيث اهتم بأمر تلك المرأة المسكينة وعاتب من أجلها محمد بن مسلمة رضي الله عنه، مع أنه لم يتعمد تركها، ومَثَلٌ من خشية الله تعالى يقدمه محمد بن مسلمة حينما ذكَّره أمير المؤمنين بالله تعالى فبكى من خشيته.

فما أعظم ذلك المجتمع الذي يتأثر أعلى مسؤول فيه وأحد كبار رجال دولته من أجل امرأة مسكينة!!

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر زيد بن أسلم عن أبيه: أن عمر رضي الله عنه استعمل مولى له يُدعَى هُنَيًّا على الحِمَى، وقال له: اضمم جناحك عن الناس، واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مجابة، وأدخل

---

(١) الساعي هو الذي يجبي الصدقة ويقسمها بين مستحقيها.

(٢) يعني غلام عمر. (٣) أى ما أقصر

(٤) الأموال / ٥٩٩ .

ربَّ الصُّرَيمة والغُنَيمة[1]، وإياي ونَعَمِ ابن عوف، وإياي ونعم ابن عفـان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع، وإن رب الغنيمة ورب الصريمة إن تهلك ماشيته جاءني ببَنيه فقال: يا أمير المؤمنين، أفتاركهم تالله لا أبالك[2]، فالماء والكلأ أهون علي من الذهب والوَرِق[3]، وايْم الله إنهم لَيَـرون أني قد ظلمـتهم، وإنهـا لبلادهم قاتلوا عليـها في الجاهلية وأسلموا عليها فـي الإسلام، ووالذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً[4].

فهذا مـثل من رحمة أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه بالفـقراء الذين ليس لهم إلا مورد واحد في الرزق، فإذا قُطع هذا المورد هلكوا، وفي مقارنة عمر بين هؤلاء الضعفاء والأغنياء دلالة على اهتمامه بشأن الضعفاء وأنه يقدمهم على الأغنياء، وإن كان هؤلاء من كبار أهل الحل والعقد كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

وهذه النظرة العـادلة من أسبـاب استـقامـة المجتمع وسـلامتـه من الاضطراب والخلل، لأن الفقراء ومتـوسطي الحال هم القطاع الكبير في المجتمـعات، فإذا كان الوالي يهتم بشأنهم فإنه يضمن شمول حياة الأمن والرخاء في المجتمع، أما الأغنياء فإنهم يستطيعون أن يُسيِّروا أمورهم بأموالهم التي تتعدد - عادة - مصادرها.

وهذه النظرة التربوية تُعدُّ امـتدادًا لمفعول الجهاد الدعوي، حـينما قضى المسلمون على الطبقية السائدة في العالم آنذاك، حيث كان الضعفاء حاشية للأغنياء يُسَخِّرونهم لما يريدون، وفي ذلك شلل للفكر الإنساني وقضـاء على حياة الإبداع والنبوغ، لأن فكر المجموعة من الناس يكون مرتبطًا بفكر رجل واحـد، والذي عمَّق تلك الطبقية وحوَّلها إلى نظام اجتماعي هـو اهتمام المسؤولين بالأقوياء وإهمالهم الضعفاء.

ومن ذلك مـا أخرجـه المؤرخ أبو زيد عمـر بن شبـة من خبـر فضـيل بن زيد الرقاشي قال: سَرَتْ سرية على عهد عمر رضي الله عنه على أرجلهم، فأعيا رجل فأراد أن يقيـموا عليه، (فرفض أميـر السرية) فنادى: يا عُمَراه، فمـضوا وتركوه، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فكتـب إلى أبي موسى (يعني الأشعري) رضي الله عنه: أن ابعث إليَّ بالرجل، فبـعث به إليه فأخـذ قناةً فجعل يضربه بهـا ويقول:

---

(١) الصريمة بالتصغير القطعة من الإبل، والغنيمة بالتصغير القطعة من الغنم.

(٢) كلمة مدح معناها لا كافي لك إلا نفسك.

(٣) يعني الفضة.

(٤) تاريخ المدينة المنورة / ٨٣٩ - ٨٤٠ .

يالبَّيكاه، ويقول: يا مُـهلك، يقول لك الرجل انتظرني فتذهب وتتـركه فينادي: يا عمراه؟ فـجعل يعتذر إليه، فقـال: والله لَصلاح رجل من المسلمين أحب إلي من هلاك كـذا وكـذا من أهل الشـرك، وكتـب إلى أبي مـوسى رضي الله عنه: انظر مُهلِكًا فلا تستعمله ما كنتَ لنا على عمل[1].

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنه بالمسلمين وشفقته عليهم، وهذا الخبر وأمثاله يدلنا على أن ما اشتهـر عنه من الشدة والقوة ليس صفة ملازمة له في كل أحواله، بل كان شديدًا في محل الشدة وليِّنا في محل اللين.

وقول عمر: لَصـلاح رجل من المسلمين أحب إليّ من هلاك كذا وكذا من أهل الشرك» مـثال لعزة المسلم ومقـدار قيمتـه في هذه الحياة.. فـأين الذين لا يبالون بأرواح المسلمين ولا يطالبون بدمائهم من هذا المثل الأعلى؟!

ومن ذلك ما أخرجـه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خـبر زيد بن وهب قال: خرج جيـش في زمن عمر رضي الله عنه نحو الجـبل، فانتهوا إلى نهـر ليس عليه جسر، فقال أمـير ذلك الجيش لرجل من أصحابه: انزل فابغنا مخاضـة نجوز فيها، وذلك في يوم بارد شديد البرد، فقال الرجل: إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت، فأكرهه، فقال: يا عُمَراه يا عمراه، ثم لم يلبث أنه هلك فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه وهو في سـوق المدينة فقال: يـالبيكاه يالبـيكاه، وبعث إلى أميـر ذلك الجيش فنزعه، وقال له: لولا أن تكون سنة لأَقَدْت منك، لا تعمل لي على عمل أبدًا[2].

وهكذا تأثر أمير المؤمنين عمـر رضي الله عنه لموت ذلك الرجل، حتى همَّ بقتل ذلك الأميـر به تعزيرًا لولا أنه خشي أن يقـتدي الولاة به في ذلك، فاكتـفى بعزل ذلك الأمير عن أي عمل في الدولة، وهذا مثل آخر يدل على اتصاف أمير المؤمنين عمر بالرحمة والشفقة بالأمة.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خـبر عبيد الله بن عمر بن حفص: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل قربة على عنقه، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين ما حملك على هذا؟ قال: إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها[3].

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر أيضًا من خبر عمر المخرومي قال: نادى عمر بن الخطاب بالصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس صعد المنبر، فحمد الله وأثنى

(١)، (٢) تاريخ المدينة المنورة/ ٨١٢ .
(٣) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٨.

عليه بما هو أهله وصلى على نبيه - عليه الصلاة والسلام - ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم، فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب، فأظل يومي، وأي يوم، ثم نزل، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قميت نفسك - يعني عبت، فقال: ويحك يا ابن عوف، إني خلوت فحدثتني نفسي قالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها نفسها[1].

فهذا السلوك قد جرى أيضًا من صحابة آخرين، وهذا شاهد على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحاسبون أنفسهم حتى على الخطرات، وأنهم يحافظون على مستوى إيمانهم، فيسعون إلى زيادته بالطاعات، ويحذرون من نقصه بالمخالفات، حتى لو كان ذلك من هواجس النفس التي لم يترتب عليها عمل.

إنهم أطباء القلوب الماهرون في علاج أمراضها، ولما كان الإعجاب بالنفس من الأمراض الخطيرة فإن علاجه عندهم هو محاولة إذلال النفس أمام الناس ليكون المؤمن بريئًا حتى من الهواجس وإيحاءات الضمير.

فلله دَرُّهُم ما أدق ملاحظاتهم!!

وما أقدرهم على كبح جماح نفوسهم!!

وفي هذا المعنى أخرج الحافظ ابن عساكر أيضًا من خبر سعيد بن المسيب قال: حج عمر فلما كان بَضَجْنَان قال: لا إله إلا الله العلي العظيم المعطي ما شاء لمن شاء، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف، وكان فظّا، يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصّرت، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحد، ثم تمثل:

[لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه ... والخلدَ قد حاولتْ عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والإنس والجن فيما بينهم بُرُدُ
أين الملوك التي كانت نواهلها ... من كل أوب إليها راكب يفدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يومًا كما وردوا[2]

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٤ - ٣١٥.

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٦.

فهذا مثل من تواضع أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه وشكره لله تعالى، حيث ذكر ماضـيه يوم أن كان راعي إبل ثم أصبح راعي أعظـم أمة على وجه الأرض، وقد تمثل بهذه الأبيـات الشعرية التي تُذكِّر بعدم الخلود لشيء في هذه الحـياة الدنيا مهما بلـغ من الرفعة والقوة، وإن في ذلك لعبرة وذكـرى لصاحب العقل السليم، حتى لا يغتر بما لديه من جاه وقوة، فإن مصير ذلك إلى الزوال.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ عمر بن شبَّة النميري من خبر نُعيم بن هزَّال رضي الله عنه قال قال عمر رضي الله عنه: تَجـدُ الرجل يلبس الصوف لو ظُلِم ما انتصر وإنَّ قلبه في ذلك لمملوء كبـرًا وإعجابًا، وإنك لتجد الرجل يتـجمل في ثيابه وفي كثير من أمره وإن في قلبه الخشوع والتواضع، وذلك أملك التواضع بالعبد[1].

ففي هذا الخـبر بيـان أهميـة التواضع، وأن الحكم على الناس ينبـغي أن يكون منطلقًا من أخلاقهم وأعمالهم، لا من مجرد مظاهر النسك والعبادة فيهم، فالعبادة إذا أثمرت التخلق بالغرور والإعجابَ بالنفس والتكبر على الخلق ولم تثمر التخلق بالتواضع والاستـقامة في السلوك فإنها عـبادة ينقصها الخشـوع وحضور القلب مع الله تعالى.

إن من أهم فوائد الشعائر التعبدية أنها تربي المسلم في الدنيا على استقامة السلوك والتـخلق بمكارم الأخلاق، وتوصل في الآخـرة إلى رضوان الله جل وعـلا ورفعـة الدرجات فـي الجنة، فإذا كانـت تؤدي إلى مسـاوئ الأخلاق، من الغرور والـكبر والإعجاب بالنفس فإن صاحبها قد خسر خسرانًا مبينًا وظلم نفسه ظلمًا كبيرًا.

ومن أمثلة تواضع أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكره لـنعمة الله تعالى ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر قتادة السدوسي قال: كان عمر بن الخطاب يلبس وهو أميـر المؤمنين جبة صوف مـرقوعة، بعضـها بأدم[2]، ويطوف الأسواق على عـاتقه الدرة[3] يؤدب الناس بها، ويمر بالنكت[4] والنوى فيلتقطه، ويلقيه في منازل الناس لينتفعوا بذلك[5].

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة/ ٨٥٦.
(٢) أي مرقوعة بجلد.
(٣) بكسر الدال العصا.
(٤) بكسر النون الغزل المنقوض.
(٥) تاريخ دمشق ٤٤/٣٠٣.

من مواقف عثمان رضي الله عنه:

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله الرومي قال: كان عثمان بن عفان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من الليل، فقيل له: لو أمرت الخادم فكفتْك! قال: لا، الليل لهم يستريحون فيه[1].

فهذا مثل من اتصاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالرحمة، فهو مع كبر سنه وعلو منزلته الاجتماعية يخدم نفسه في الليل ولا يوقظ الخدم، وإن وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين، وإن مما ينبغى للمسلم الذي سخر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكر أن الخادم إنسان مثله له طاقة محدودة في العمل، وله مشاعر وأحاسيس فينبغي له أن يراعي مشاعره، وأن ييسر له الراحة الكاملة في النوم، وأن لا يشق عليه بعمل.

من مواقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكر الحافظ ابن كثير من خبر صالح بن أبي الأسود عمن حدثه أنه رأى عليًا قد ركب حمارًا ودلَّى رجليه إلى موضع واحد، ثم قال: أنا الذي أهنت الدنيا[2].

وهكذا يشعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفرح لانتصاره على نفسه، وظهوره بمظهر التواضع أمام الناس وهو خليفة المسلمين.

إن مناصب الدنيا خداعة غرارة، وإن فتنة الجاه بها أعظم من فتنة المال، فلطالما رأى الناس مسؤولين كانوا متواضعين قبل أن يلوا، فلما تولوا مناصب كبيرة بدأ التعاظم في نفوسهم شيئًا فشيئًا، حتى يكون من الصعب في آخر الأمر مخاطبتهم واللقاء معهم، لكن أولياء الله المتقين كلما ازدادوا رفعة في المناصب الدنيوية زادوا تواضعًا للناس، وشعروا بالسرور وهم يقومون بمظاهر التواضع التي تنفي عنهم صفة التجبر والكبرياء.

ومن أخبار تواضعه رضي الله عنه ما رُوي عنه أنه اشترى تمرًا بدرهم فحمله في ملحفة، فقالوا: نحمل عنك يا أمير المؤمنين، قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل[3].

---

(١) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٦.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٥.

(٣) الزهد للإمام أحمد / ١٣٣.

فهذا مثل من تواضعه حيث حمل متاعه بنفسه مع كونه أمير المؤمنين ومع كبر سنه، فلم يَرَ في ذلك مسوِّغًا لقبول خدمة الناس له، وهو بهذا يجعل من نفسه قدوة حسنة للمسلمين في التواضع، فلو نازعتْ أحدَ الكبراء نفسهُ في تصور العيب من حمل المتاع فإنه بتذكُّره لموقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يزول ما في نفسه من ذلك، ولو اعترض على أحد المتواضعين معترض فإن له من الاقتداء بأكبر أمير على وجه الأرض ما يرد هذا الاعتراض.

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر ثعلبة بن أبي مالك أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة مروان فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك، قال فقلت: أصلحك الله تُلقي هذا، فقال: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه[1].

فهذا مثل مما كان يقوم به الصحابة رضي الله عنهم من مظاهر التواضع، إما للتهوين من شأن النفس إذا أرادت أن تطمح لشيء من الجاه والمنزلة في الدنيا، أو من باب التعليم والقدوة الحسنة ليثبتوا للناس أن المناصب لا تغريهم، ولا تحملهم على شيء من العجب والكبرياء.

وقد تكرر هذا المشهد من علي بن أبي طالب وسلمان وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم وكلهم كانوا - آنذاك - أمراء، ولقد أثبتوا لمن عاصرهم من التابعين ولمن جاء بعدهم أنهم أعلى تفكيرًا وأبعد طموحًا من أن تؤثر عليهم مناصب الدنيا، لأنهم إنما أرادوا الآخرة، ومن أراد الآخرة أهان من أجلها الدنيا.

من مواقف عبد الله بن سلام رضي الله عنه:

أخرج الإمام أحمد من خبر عبد الله بن حنظلة أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب، فقيل: أليس الله أعفاك من هذا؟ قال: بلى، ولكن أردت أن أدفع به الكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»[2].

(١) البداية والنهاية ٨/ ١١٤.
(٢) الزهد / ١٨٢.

وهكذا يقوم عبد الله بن سلام رضي الله عنه بتطهير قلبه من مرض من أكبر أمراض القلوب، حيث يقوم بإذلال نفسه بذلك السلوك الذي قام به حتى لا يتطرق إلى قلبه مثقال حبة خردل من كبر، وكم هو شعور الفرح لديه وهو يمارس ذلك العمل الذي يحس معه بأنه قد نجح في كبح جماح النفس عن الشرف والجاه الرفيع!!

من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر حبيب بن أبي ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: أَلَكُم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[1].

فهذا مثل على تواضع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتعليله المذكور فيه نوع من الفقه الدقيق لمداخل الضعف في النفوس، وتغليب لجانب حفظ الدين وحمايته، فكم من مخدوع بتبعيَّة الناس له ووطئهم عقبيه أضر بآخرته ولم يخرج من الدنيا إلا بمقت الناس واحتقارهم، وعلى فرض محبة الناس للمتبوع فإن ذلك تربية لهم على الذلة والخنوع.

من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه:

من ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من حديث عبد الرحمن بن نُفَير عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود[2] يومًا فمرَّ به رجل فقال: طوبَى لهاتين العينين اللَّتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت، فاستمعتُ فجعلتُ أعجب ما قال إلا خيرًا، ثم أقبل عليه فقال: ما يحمل أحدكم على أن يتمنى محضرًا غيَّبه الله عز وجل عنه، لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبَّهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، أوَلاَ تحمدون الله إذ أخرجكم الله عز وجل لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم عليه الصلاة والسلام وقد

(١) صفة الصفوة ١/٤٠٦.

(٢) هو المقداد بن عمرو القضاعي، ولكن غلب عليه الانتساب للأسود لأنه كان قد حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي فتبنَّاه - المستدرك ٣/٣٤٨ -.

كفيتم البلاء بغيركم؟ والله لقد بُعِث النبي ﷺ على أشد حال بُعِث عليه نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في فترة وجاهلية، ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق به بين الوالد وولده، حتى إن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافرًا وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان ليَعْلَم أنه قد هلك من دخل النار فلا تَقَرُّ عينه وهو يعلم أن حميمه في النار، وإنها لَلَّتي قال الله عز وجل ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤][1].

فهذا مثل من أمثلة التواضع وعدم الغرور بالفضيلة التي لا يوصل إليها، فقد أشاد ذلك الرجل بالمقداد لكونه رأى النبي ﷺ، فلم يفتخر المقداد بدرجة الصحبة التي لا يستطيع التابعون ولا غيرهم أن يصلوا إليها، وأنكر على ذلك التابعي تمنِّيه لقاء النبي ﷺ لأن ذلك ليس في إمكانه، ووجَّهه ومن حوله من التابعين إلى أن يحمدوا الله تعالى على أنهم نشؤوا في الإسلام ولم يتعرضوا للبلاء الذي تعرض له الصحابة، وإن مقتضى حمد الله جل وعلا على الهداية أن يستقيم المسلم على تكاليف هذا الدين وأن يكثر من الأعمال الصالحة.

وإذا كان غير الصحابة لم يتمكنوا من لقاء النبي ﷺ في الدنيا فإن لصالحي أمته موعدًا معه للِّقاء يوم القيامة، فليفكر المسلم بذلك اللقاء المحقق وليُعِدَّ له عدَّته.

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم تربويين يدفعون الناس إلى العمل الذي ينفعهم في حياتهم الدنيا والأخرى، ولا يتركونهم لأحلامهم التي لا شيء يجدي من وراءها.

من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما:

عن ابن سيرين رحمه الله قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أميرًا كتب إليهم: إني قد بعثت إليكم فلانًا وأمرته بكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا، فلما بعث حذيفة رضي الله عنه إلى المدائن كتب إليهم: إني قد بعثت إليكم فلانًا فأطيعوه، فقالوا: هذا رجل له شأن، فركبوا ليتلقوه، فلقوه على بغل تحته إكاف وهو معترض عليه، رجلاه من جانب واحد فلم يعرفوه فأجازوه - يعني

(١) حلية الأولياء ١/ ١٧٥ - ١٧٦، وانظر صفة الصفوة ١/ ٤٢٤.

مَرُّوا به وخلَّفوه - فلقيهم الناس فقالوا: أين الأمير؟ قالوا: هو الذي لقيتم، قال: فركضوا في أثره فأدركوه وفي يده رغيف وفي الأخرى عَرق - يعني قطعة لحم - وهو يأكل، فسلموا عليه، فنظر إلى عظيم منهم فناوله العَرْق والرغيف، قال: فلما غفل ألقاه أو قال: أعطاه خادمه.

وفي رواية أخرى عن ابن سيرين: أن حذيفة كان راكبًا على حمار له إكاف، وبيده رغيف وعرْق من لحم، فقالوا: سلنا ما شئت، فقال: أسألكم طعامًا آكله وعلفًا لحماري هذا مادمت فيكم.

فأقام ما شاء الله، ثم كتب إليه عمر: أن اقْدم، فقدم فلما بلغ عمرَ قدومُه كَمَنَ له في الطريق في مكان لايراه، فلما رآه على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال: أنت أخي وأنا أخوك[1].

وهكذا رأينا في هذه القصة المليئة بالعبر كيف أن وجوه أهل العراق قد خرجوا لاستقبال الأمير الذي توقعوا على الأقل أن يكون معه مرافقون وأن تكون له هيئة تميزه ولو بعض الشيء، ولكنهم فوجئوا بمرور الأمير حذيفة وهو وحده راكبًا حمارًا بشكل متواضع فلم يعرفوه.

إنه تلميذ من تلاميذ المدرسة النبوية التي تربَّى أفرادها على السمو عن مظاهر الدنيا وزخارفها وإظهار عزة الإسلام أمام ضغوط مظاهر الجاهلية.

إن هذا المظهر المتواضع الذي ظهر به هذا الأمير أمام من يهتمون بالمظاهر الدنيوية يُعدُّ درسًا بليغًا لهم ولغيرهم.

وإنه لموقف كبير أن يقف هذا الصحابي الجليل وأمثاله لوضع معوقات قوية توقف انحدار الناس نحو المظاهر الدنيوية لأنه إذا كان الأمير يظهر بهذا المظهر البسيط فإن من تميل نفسه إلى المظاهر ممن هم أقل منه منزلة اجتماعية سيجد حرجًا في الاستمرار في هذه المظاهر.

وحين قالوا له: «سلنا ما شئت» كان أمامه فرصة ذهبية للتكثُّر من الدنيا والتمتع بطيباتها لو كان من أهلها، ولكنه لم يطلب إلا طعامًا له وعلفًا لحماره، وإن أقل

(١) صفة الصفوة ١/ ٦١٢.

أجيـر يكون عند صـاحب عمل لا يرضى بأن يعـمل بطعـام بطنه فقط، ولكنهـا النفوس العلية تأبى إلا السمو دائمًا نحو المكارم، وتعمل جاهدة على رفع رصيدها الأخروي وإن أضرت بأجسامها في دار الفناء.

هذا وإن موقف عمر حين كَمَنَ لأخيه حـذيفة رضي الله عنهما ليراه على الحال التي يصل عليها دليل على اهتمامه بالحفاظ على الرصيد الأخلاقي للأمة، لأنه إذا اسـتطاع أن يحافـظ على تماسك هذا الرصـيد عند الولاة فـإن الأمـة تبع لهم في ذلك.

وفي التزامه إياه وإعلان الأخوة بينهما مظهـر خلاب من مظاهر الفرحة القلبية، وسعادة الروح، حينما يرى الأخ أخاه في الله على الوضع الديني الذي يُرضي الله تعالى.

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه:

لقد كان لسلمان الفارسي رضي الله عنه مـواقف عالية في التواضع، فلقد كان متواضعًا لله تعـالى ولعباده المؤمنين، ومن أمثلة تواضعه واهتمـامه أنه لَمَّا كان واليا على المدائن كـان إذا سجدَتْ له العـجم طأطأ رأسه وقال: خـشعت لله خـشعت لله[1].

وفي هذا تقرير للتوحيد بالقول والعمل وتعليم لأولئك الجاهلين بأمر الله تعالى وما يجب له من إفراده بالسجود.

ومن أمثلة تواضعه رضي الله عنه ما يرويه ثابت البنـاني قال: كان سلمان أميرًا على المدائن، فـجاء رجل مـن أهل الشام ومـعه حـمل تِبْن وعلى سلمـان «اَنْدَرا وِرْد»[2] وعبـاءة، فقـال لسلمان: تعـال احمل، وهو لا يعـرف سلمان، فـحمل سلمان، فـرآه الناس فعـرفوه فـقالوا: هذا الأميـر، فقـال: لم أعرفك، فـقال له سلمان: لا، حتى أبلغ منزلك، وفي رواية أخرى: إني قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٥٤٦.

(٢) يعني نوعًا من اللباس يغطي الركبة.

(٣) صفة الصفوة ١/٥٤٢.

في هذا الخبر نوع نادر المثال من التـواضع من سلمان رضي الله عنه، فهو أولاً وهو أميـر على المدائن عاصـمة مملكة الفرس يلبس لبـاس الفقـراء حتى ظنه ذلك الرجل ممن يحملون الأمتعة للناس فحمَّله ما معه من التبن، ثم بعد أن عرف ذلك الرجل أنه الأمـير واعتـذر منه أبى إلا أن يستـمر حـتى يوصله منزله لأنه نوى في ذلك عملاً صالحًا لله تعالى فكره أن يقطع ذلك العمل.

وما أبلغه من عمل يسهم فيه فاعله في تثبيت خلق التواضع في المجتمع!

وهكذا يصنع العظماء في إهانة أنفسهم من أجل إشاعـة الأخلاق السامية وتربية المسلمين على الخشونة والزهد.

وإنه لا يقـدر على هذا العمل إلا من عظمت الآخـرة في عينه إلى الحـد الذي أصبح لا ينظر معه إلى الجاه الدنيـوي ولا إلى انتقاد الناس مادام واثقًا من أنه يمثل الأخلاق العالية في أسمى صورها.

ويذكر الحسن البصري رحمه الله تواضع سلـمان وهو أمير على المدائن فيقول: كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان على ثلاثين ألفًا من الناس يخطب في عباءة يفرش نصفـها ويلبس نصفهـا، وكان إذا خرج عطاؤه أمضـاه - يعني تصدق به - ويأكل من سفيف يده رضي الله عنه.

ويقول النعـمان بن حميـد: دخلت مع خالي على سلمـان بالمدائن وهو يعمل الخوص، فسمعته يقول: أشتري خوصًـا بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهمًا فيه، وأنفق درهمًا على عيالي، وأتصدق بدرهم، ولو أن عمر نهاني عنه ما انتهيت[1].

يعني لو أن عـمر رضي الله عنه أمـره بترك هذا العـمل اليدوي والإنفـاق على عياله من العطاء لما فعل.

وإن هذا لنموذج فريد من العناصر الزكية التي خلصها الإسلام من جميع أنواع الغش فعادت جوهرًا نقيًا صافيًا من الكدر.

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤٧.

وإن المتأمل ليقف مندهشًا من هذه القوة الجبارة التي تحمل سلمان وأمثاله على إنفاق عطائهم من بيت المال بالكامل، والأكل من بعض عمل أيديهم وإنفاق بعضه الآخر.

إنهم لا يعملون حسابًا للإصابة بالأمراض أو كساد الأسواق ونحو ذلك؛ لأنهم قد اكتفوا باليسير من العيشة وعودوا أنفسهم على ذلك، وهذا النوع من المعيشة يمكن بتوفيق الله تأمينه بسهولة عند الاضطرار بخلاف من يتوسعون في النفقات ويألفون حياة الترف، فمن الصعب عليهم النزول إلى العيش الضروري لأن نفوسهم تحتاج إلى فترة من الزمن حتى تألف على ذلك.

ومن مواقفه في الزهد والتواضع ما رواه أبو ظبيان عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: نزلت بالصِّفاح في يومٍ شديد الحر، فإذا رجل نائم في حر الشمس يستظل بشجرة، معه شيء من الطعام ومزوده تحت رأسه ملتف بعباءة، فأمرت أن يُظلَّل عليه، ونزلنا فانتبه فإذا هو سلمان فقلت له: ظلَّلنا عليك وما عرفناك، قال: يا جرير تواضعْ في الدنيا فإنه من تواضع يرفعه الله يوم القيامة، ومن يتعظَّم في الدنيا يضعْه الله يوم القيامة، لو حَرَصت على أن تجد عودًا يابسًا في الجنة لم تجده، قلت: وكيف؟ قال: أصول الشجر ذهب وفضة، وأعلاها الثمار، يا جرير تدري ما ظلمة النار؟ قلت: لا، قال ظلم الناس[1].

وفي عمل جرير مع سلمان دليل على ما كان يتحلى به الصحابة رضي الله عنهم من حب فعل الخير والإحسان إلى الناس عرفوهم أو لم يعرفوهم، لأنهم إنما يطلبون ثوابهم من الله تعالى، حيث قام جرير بالتظليل على ذلك الرجل النائم من الشمس وهو لا يعرفه، فأتحفه سلمان بهذه الموعظة البليغة في لزوم التواضع والزهد في الحياة الدنيا، واجتناب ظلم الناس.

وفي هذا الخبر توجيه من سلمان رضي الله عنه إلى التخلق بخلق التواضع، وقد رغَّب في ذلك بذكر ثمرته في الآخرة، وإذا كان الإنسان في الدنيا يتواضع لمديره في العمل من أجل أن يساعده في رفع مستواه الوظيفي، أفلا يتواضع المسلم لإخوانه من أجل الله تعالى ليكسب رفعةً في الدرجات يوم القيامة؟!

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤٨.

وإذا كانت الدنيا تقوم على تبادل المنافع فلنفرض أن منفعةً دنيوية زالت من الإنسان فما الذي سيخسره مادام مستور الحال ولا يدري ما مقامه في هذه الحياة؟

ولكن كم يخسر لو ضاعت منه منافع الآخرة حينما ترتفع درجات الصالحين ويبقى هو فى مؤخرة الناس؟!

ثم تساءل سلمان عن الظلمات يوم القيامة فأجاب بأنها ظلم الناس بينهم في الدنيا، وإذا كان الأمر كذلك فما أقل متعة الظالم في الدنيا وما أقصر مدتها!

ولكن ما أشد عذابها يوم القيامة، وما أطول حزنها آنذاك!

ومن هذه الوصية نعلم قدر التوجيهات التربوية التي استفادها الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ حيث أصبحوا ينطقون بالحكمة المستقاة من السنة النبوية، وذلك في مثل قوله ﷺ «**الظلم ظلمات يوم القيامة**».

ثم نجد سلمان رضي الله عنه بعد أن أعطى توجيهاته القيمة نحو تركيز الاهتمام بالحياة الآخرة يضرب مثالاً على عظمة نعيم الجنة حيث بين فيه أن أصول شجر الجنة اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر، فكأنه يقول: هذا النعيم الخالد هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون لا متاع الدنيا الزائل.

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

ومن أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في التواضع ما رُوي عن مجاهد رحمه الله قال: كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإذا أردت أن أركب مسك ركابي، فإذا ركبت سَوَّى عليَّ ثيابي، فرآني مرة كرهت ذلك فيَّ، فقال: يا مجاهد إنك لضيِّق الخلق، وفي رواية قال: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني[1].

فهذه أخلاق عالية من العالم الرباني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حيث يقوم بخدمة تلاميذه، ولقد كانت هذه الأخلاق أصيلة فيه حيث كان يصرُّ عليها، ويغضب حينما تظهر الكراهية لذلك في وجوه تلاميذه.

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٥.

ولقد كان أهمَّ الدوافع لتخلق الصحـابة وعامة الصالحين بتلك الأخلاق الكريمة اهتمامُهم الكبير باكتساب الأعـمال الصالحة، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالتواضع لمن هو دونهم، وبهذه الأخـلاق النبيلة ربَّوا مجتـمعًا صالحًـا خلَفَهم في وراثة هذا الدين وتبليغه لمن بعدهم.

من مواقف سعيد بن المسيب رحمه الله:

من ذلك ما أخـرجه الحافظ أبو نعـيم من خبـر كُثَيِّر بـن المطلب بن أبي وداعة قال: كنت أجـالس سعيد بن المسـيب ففقدني أيامًـا، فلما جئتـه قال: أين كنت؟ قال: توفِّيَتْ أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقـال: أنا، فقلت: أوَ تفـعل؟ قال: نعم، ثم حمـد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو ثلاثة.

قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي، واسترحت، وكنت وحدي صائمًا، فقدَّمت عشائي أفطر كان خبزًا وزيتًا، فإذا بآت يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: ففكرت في كل إنسان اسـمه سعيد إلاّ سعيدَ بن المسيب، فإنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمت فخرجت فإذا سعيدُ بن المسيب فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلتَ إليّ فآتيك، قال: لا، لأنت أحق أن تُؤتَى، قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كـنت رجلاً عزبًا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قـائمة من خلفه في طوله، ثم أخذها بيدها فدفعها بالباب، ورد الباب فسقطَتْ المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الزيت والخبز فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعـدت إلى السطح فرمـيت الجيـران، فجاؤوني فـقالوا: مـا شأنك؟ قلت: وَيْحكم زوجني سـعيد بـن المسيب، وهذه ابنتـه اليوم وقـد جاء بها على غـفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زوجك؟! قال: نعم، وها هي في الدار، قال: فنزلوا هم إليهـا، وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجـهي من وجهك حرام إن مـسستهـا قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام.

قال: فأقمت ثلاثة أيام ثم دخلت بـها فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي من أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج.

قال: فمكثت شهرًا لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان قرب الشهر أتيت سعيدًا وهو في حلقـتـه، فسلـمت عليه فـرد السـلام، ولم يكلمني حـتى تقـوَّض أهل المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حـال ذلك الإنسان؟ قلت: خيرًا يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: فإنْ رابك شيء فالعصا، فانصرفت إلى منزلي، فوجَّه إليّ بعشرين ألف درهم[1].

فهذا الخـبر فيه مـثل على طموح عظماء الرجال نحـو معالي الأمور، فـحينما تسمو بالرجال نفـوسهم يهون عليهم كلُّ ما تعارف الناس عـليه من زخارف الدنيا وجاهها، ولا يصبح أمـامهم إلا هدف واحد يُسخِّرون له كل ما في حـياتهم الدنيا من متاع وجاه، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة.

فهذا الإمـام الجليل سعيد بن المسـيب يخطب ابنته كبراء الناس - كـما جاء في روايات أخرى - فـلا يلتفت إلى مـا يترتب على ذلـك من رفعة دنيـوية في المال والجاه، بل كـان الشيء الذي يهيـمن على تفكيره هـو لزوم حماية ابنتـه من تلك المظاهر الدنيوية، فهو يرى أنه لو زوجها من أبناء الكبراء لكان سببًا في صرفها عن التزود بعمل الآخرة إلى الانشغال بمظاهر الدنيـا، فامتنع من ذلك حماية لابنته من الفتنة، وصيـانة لإيمانها من التصدع، وبالتالي فـإنه قد وهبها الخير ولم يحـرمها، وأسعدها ولم يُشْقها.

وكان يرى أن خيرها وسـعادتها بزواجها من شاب تقي زاهد في الـدنيا، فاغتنم فرصة وفاة زوجة أحد تلاميذه الأتقياء الفقراء فعرض عليه الزواج بابنته التي خطبها قبل ذلك أبناء الأكـابر، وهذا يُعدُّ مثلا عـاليًا في التواضع والزهد في متـاع الدنيا وجاهها.

ثم إن الطريقـة التي زَفَّ بهـا ابنته إلى ذلـك الشاب كـانت في غـاية البسـاطة والروعة، فـلا مظاهر ولا تكلف، ولا تقيدَ بالعـوائد المرسومة التي تعارف عليـها الناس.

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٦٧ - ١٦٨، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٣.

ولقد كـانت ابنته في غاية الطاعـة له حيث سارت مـعه بتلك الطريقة البـسيطة المحرجة لهـا، مما يدل على سمو تربيتهـا وقوة دينها وغزارة علمها، كـما جاء في وصفها على لسان زوجها.

وأخيرًا نرى هذا الإمام الجليل يتحلى بالكرم الفياض، حيث أعطى ذلك الشاب الفقير عشرين ألف درهم، مع قبول تزويجه قبل ذلك على درهمين أو ثلاثة.

فلله دره ما أرجح عقله وأسمى تفكيره!! وما أكرمه وأحزمه!!

من مواقف أمير المؤمنين عمر بن العزيز رحمه الله:

من أمثلة تواضعه:

أخرج الحـافظ أبو القاسم ابن عسـاكر من خبـر الحكم بن عمر الرعـيني قال: رأيت عمر بـن عبد العزيز إذا صلى المكتـوبة انصرف إلى أهله لا يتطوع[1]، وربما جلس فجاء الغـريب الذي لا يعرفه، وكان يقوم من هذه الحلقـة فيجلس مع هذه الحلقة يسأل عن أمـير المؤمنين وفي أي حلقة هو! فيـقف لا يدري أيهم حتى يشار إليه: هذا أمير المؤمنين، فيسلم عليه بالخلافة[2].

وذكر الحـافظ ابن الجوزي من خـبر الإمـام الأوزاعي قال: كان عـمر بن عـبد العزيز يجلس إلى قاصِّ العامـة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع، ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ومعها مولاة لها تمسك بيدها، فقام لها عمر ومشى إليها حتى جعل يدها في يده ويداه في ثيابه، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه، وجلس بين يديها، وما ترك لها حاجة إلا قضاها[3].

وقال أبو محمـد عبد الله بن عبد الحكم: وناداه رجلٌ فقـال: يا خليفة الله في الأرض. فقال له عمـر: مَهْ إني لما ولدت اختار لي أهلي اسمًا فسَـمَّوْني عمر فلو ناديتني يا عمر أَجبتُك. فلما كـبرت اخترت لنفسي الكُنى فكُنِّيتُ بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتُك. فلمـا وليتُموني أُموركم سميتـموني أمير المؤمنين فلو ناديتني يا أميـر المؤمنين أجبتك. وأمَّا خليفـة الله في الأرض فلسـت كذلك ولكن

(١) أي لا يصلي السنة الراتبة في المسجد وإنما يصليها في البيت لكون ذلك أفضل.

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٠- ٢١١.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٤٦.

خلفاء الله في الأرض داود النبيُّ عليه السلام وشبهُه قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**﴾ [ص: ٢٦][1].

فهذه أمثلة من روائع الإمام العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى التواضع، فهو لا يميز نفسه عن العامة بلباس ولا مظاهر دنيوية.

ونجده يعامل ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما تلك المعاملة الرقيقة الحانية تقديرًا لها ولوالدها وجدها، لكونهما من الصحابة رضي الله عنهم، ولما لهما من مآثر جليلة فى خدمة رسول الله ﷺ والإسلام.

كما نجده يرفض الألقاب الكبيرة ويبين أن أحب الأسماء إليه ما يُشعر بالتواضع منه وعدم المغالاة من الناس.

جوابه لمن اتهمه بالكبر:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من حديث الليث بن سعد أن أبا النضر حدثه قال: دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله أن قل له: إن فيك كبرًا وأنك تتكبر، فقيل ذلك له، فقال عمر: لبئس ما ظننتَ إن كنتَ تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه. الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنازعه إياه، ولكن كنت غلامًا بين الغلمان -أو قال بين ظهري قومي- يدخلون عليَّ بغير إذن ويتوطئون فرشي ويتناولون مني ما يتناول القوم من أخيهم الذي لا سلطان له عليهم. فلما أن وليت خيرت نفسي في أن أمكنهم من حالهم التي كنت لهم عليها وأعاقبهم فيما خالف الحق أو أتمنع منهم في بابي ووجهى ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو كنت جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب فهو الذي دعاني إلى هذا[2].

وهكذا اتُّهم هذا الولي الصالح والحاكم العادل بالكبر، وإنه لعجيب جدًا أن يُظَنَّ بعمر بن عبد العزيز أنه متكبر وهو الذي خلَّف الدنيا بجاهها ومالها وراء ظهره، ولكن الذين ليست لديهم تجارب إدارية يعتقدون أن المسؤول يجب أن يكون بابه مفتوحًا للناس في جميع الأوقات، ولا يعلمون أنه لو فعل ذلك لأضاع كثيرا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٩٤.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٤٨.

من أمور الأمة المهمة التي تحتاج إلى دراسة ونظر ومشورة من أصحاب الشأن، كما أن المسؤول يحتاج إلى وقت للتأمل والتفكير فيما يصلح أمور الأمة ويرفع من مستواها المادي والفكري وغير ذلك مما يلزم له الاحتجاب عن عامة الناس بعض الوقت.

مثل من حلمه على من جهل عليه:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الإمام الأوزاعي: أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه.

قال: وأسمعه رجل كلامًا فقال له: أردتَ أن يستفزني الشيطان فأنال منك اليوم بما تنال أنت مني يوم القيامة، انصرف عني عافاك الله ورحمك[1].

وهذا تصرف سديد من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله، حيث إن الحكم فى حال الغضب يكون فيه شىء من حظ الشيطان، لأن الغاضب يندفع إلى المبالغة فى إيقاع العقوبة على من غضب عليه، أما التريث فإن فيه فرصة للحكم بعد زوال الغضب والتأمل فى التصرف بحكمة فى تأديب المخالفين.

وفي قوله: «أردتَ أن يستفزني الشيطان» إدراك منه لسلاح من أسلحة الشيطان التي يغوي بها أصحاب المسؤولية، فيحملهم على السلوك المنافي لمكارم الأخلاق.

مثل آخر من حلمه:

ومن أمثلة تخلقه بخلق الحلم ما أخرجه محمد بن سعد من خبر عمر بن حفص قال: حدثنا شيخ قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز بدابق خرج ذات ليلة ومعه حرسيّ فدخل المسجد فمرَّ في الظلمة برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون أنت؟ قال: لا، فهمَّ به الحرسي، فقال له عمر: مَهْ إنما سألني أمجنون أنت فقلت لا[2].

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٥-٢٠٦،وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٠١ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥١.

(٢) الطبقات الكبرى ٥/ ٣٩٧، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٦، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥١.

وهكذا يمثِّل عمر بن عبد العزيز القمة في مكارم الأخلاق وقد بلغ القمة في الجاه الدنيوي، حيث كان أكبر أمير على وجه الأرض، ومع ذلك يحتمل هذه الكلمة القاسية وينهى حارسه لما أراد أن يعاقب ذلك الرجل.

عفوه عن الذي شجه في وجهه:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر قيس بن عبد الملك قال: وقام عمر ابن عبد العزيز إلى قائلته وعرض له رجل بيده طومار، قال فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت أمير المؤمنين فأصابه في وجهه، فشجه، فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته وخلى سبيله!!(١).

مثل من عفوه عند الغضب:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إبراهيم بن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يوما على رجل غضبا شديداً فبعث إليه فجرده ومده في الحبال، ثم عاد بالسياط حتى قلنا: هو ضاربه، قال: خلوا سبيله، أما إني لولا أني غضبان لسؤتك، وقرأ ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤](٢).

فهذا الرجل قد أغضب بجهله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولكنه وسعه بحلمه، والحلم عن الجاهلين من مكارم الأخلاق العالية.

ونجده -رحمه الله- يتذكر الآخرة حالا فيبين أن النزول إلى مستوى الجاهلين ينزِّل من درجات المسلم في الآخرة، بينما تكون عاقبة الصبر على الأذى والحلم عن الجاهلين والإمساك عن الجدل معهم رفعة الدرجات في الجنة كما جاء في قول النبي ﷺ «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا**»(٣).

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣١١، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥٠-١٥١.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٥٠.

(٣) سنن أبي داود رقم ٤٨٠٠، كتاب الأدب باب ٨، والزعيم هو الضامن وربض الجنة يعني طرفها، والمراء هو الجدال والنزاع.

مثل من رحمته بالمجاهدين:

ذكر ابن عبد الحكم أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استفتح خلافته بثلاثة كتب، ذكر منها هذا الكتاب حيث قال: كتب بِقَفْل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها برًا وبحرًا وأشفى على فتحها، ثم خُدع عنها حتى أحرزوا طعامهم وحوائجهم ثم أغلقوها دونه بعد الإشفاء عليها، فبلغ ذلك سليمان فغضب مما فُعل به فحلف أن لا يقفله منها مادام حيّا، فاشتدَّ عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدوابَّ من الجهد والجوع حتى يتنحى الرجل عن دابَّته فتقطع بالسيوف فبلغ رأس الدابَّة كذا وكذا درهمًا. ولجَّ سليمان في أمرهم. فكان ذلك يغمُّ عمر فلما وَلي رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئا من أمور المسلمين ثم يؤخر قَفْلهم ساعةً فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب[1].

رحمته بالأسرى:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أن فاد أساري المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[2].

مثل من رحمته بالأيتام:

قال الحافظ ابن كثير: وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا مُرَيِّئَة تقول: إنه ابني وإنه يتيم، فقال لها عمر: هوِّني عليك، ثم قال لها عمر: أله عطاء في الديوان؟ قالت: لا، قال: فاكتبوه في الذرية، فقالت زوجته فاطمة: أتفعل هذا به وقد شجَّ ابنك؟ فعل الله به وفعل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية، فقال: ويحك إنه يتيم وقد أفزعتموه![3].

وهكذا يشمل لطفه ذلك اليتيم مع إساءته إلى أحد أبنائه، ويُحظى منه بالتعويض المالي مقابل ذلك الفزع الذي حصل له، فما أبلغ رحمة عمر، وما أرق مشاعره، وما أسمى تفكيره في معاملة إخوانه المسلمين!!

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٣٧.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٢.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥٠.

مثل من رحمته بالغلمان:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حيوة: ما أكمل مروءة أبيك، سمرت عنده ذات ليلة فعشَى السراج فقال لي: ما ترى السراج قد عشى؟ قلت: بلى، وإلى جانبه وصيف راقد، قال قلت: ألا أنبهه؟ قال: لا دعه يرقد[1]، قال: قلت: أفلا أقوم أنا؟ قال: لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه، قال: فوضع رداءه ثم قام إلى بَطَّة زيت معلقة فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع، قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[2].

فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها. فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم، ويؤثر إكرام الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على وجه الأرض آنذاك، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء، ولا يتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره وجسمه ووقته.

رحمته بجارية له:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر النضر بن سهيل عن أبيه قال: قال عمر بن عبد العزيز لجارية له: يا جارية روحيني، فأقبلت تروحه فغلبتها عينها فنامت، فأخذ المروحة وأقبل يروحها، فانتبهت فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحرِّ ما أصابني، وأحببت أن أروِّحك مثل الذي روحتني[3].

مثل من رحمته بأهل الذمة:

أخرج ابن سعد من خبر عمر بن بهرام الصراف قال: قُرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي ابن أرطأة ومن قِبَله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله

---

(١) وفى رواية ابن كثير «لا أحب أن أجمع عليه عملين».

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٥- ٢٢٦، وانظر الزهد للإمام أحمد/ ٢٩٨، والبداية والنهاية ٩/ ٢٠٣.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٤٦.

الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبُر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمُرْ حميمه ينفق عليه، وقاصِّه من خراجه[1] كما لو كان لك عبد فكبرتْ سِنُّه لم يكن لك بُدّ من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق[2].

فهذا مثل على سمو حكام المسلمين إذا تمثلوا بالإسلام وطبقوا تعاليمه، وهو بالتالي شاهد على عظمة الإسلام الذي أخرج هذا الحاكم العادل الرحيم وأمثاله، فالذمي الذي يفتقر لا يضيع في دار الإسلام، لأن حكومة الإسلام ترعاه كما ترعى فقراء المسلمين، وهي لا ترجو منه نفعا ولا دفع ضرر وإنما تمثل بذلك مكارم الأخلاق التي هي من أعظم مقاصد الإسلام.

مثل من رحمته بالحيوان:

لم تقتصر رحمة عمر بن عبد العزيز على الإنسان بل شملت الحيوان الأعجم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله حيان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلاً نَقَّالات، يُحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفنَّ أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل[3].

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر أبي عثمان الثقفي قال: كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل له على بغل له، يأتيه بدرهم كل يوم، فجاءه يومًا بدرهم ونصف، فقال: ما بدا لك؟ فقال: نَفَقَت السوق، قال: لا ولكنك أتعبت البغل، أرْجِه ثلاثة أيام[4].

من مواقف مطرِّف بن عبد الله رحمه الله:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر ثابت البناني أن مطرِّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير قال لابن أبي مسلم: ما مدحني أحد قط إلا تصاغرت على نفسي[5].

---

(١) أي حُطَّ عن صديقه من خراجه ما أنفق عليه. (٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٠.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦٤.
(٤) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٠، وارْجِه بمعنى أخِّره للراحة. (٥) حلية الأولياء ٢/ ١٩٨.

وهذا دليل على قـوة إيمان مطرف بن عبـد الله رحمـه الله، حيث غلب نفـسه وحجَّمـها ومنعها من أن تطمح نحـو الجاه والشرف، وهو مثل جـيد في التواضع المبني على قطع موارد الكبرياء التي من أهمها الإعجاب بالنفس.

من مواقف محمد بن سيرين رحمه الله:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خـبر هشام بن حسام قال: حدثني بعض آل سيرين قال: ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع.

وأخرج أيضًـا من خبر ابن عون قـال: دخل رجل على محمـد وهو عند أمه، فقـال: ما شأن محـمد أيشتكي شـيئًا؟ قالوا: لا ولـكن هكذا يكون إذا كان عند أمه[1].

فهذا مـثل من التواضع للوالدين، وهو من أهم مجالات البر بهـما، ولقد بلغ ابن سيرين من إهانته نفسه أمام أمه حـدا أثر على قسمات وجهه حتى ظن من رآه أنه يشكو من ألم، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة تمسكه بأحكام الإسلام وآدابه.

كما أن هذا الخبـر وأمثاله دليل على عظمة الإسلام وقـوة تأثيره على النفوس، فهـل كان أجـداد ابن سيـرين -وهم على مجـوسيـتهم- يعـاملون أمهـاتهم هذه المعاملة؟!

إن الواقع التاريخي يشهـد بأن هذا الرقي الأخلاقي لا يوجد إلا عند المسلمين، وأن هذه القوة المؤثرة لا توجد في غير الإسلام.

من مواقف سليمان بن مهران رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن الإمام سليمان بن مهران المشهور بالأعمش وقد ذكر حديث الرجل الذي ذُكر عند النبى ﷺ أنه مـا زال نائمًا حتى أصبح، ما قام إلى الصلاة فقال: «**بال الشيطان في أذنه**» أخرجه الشيخان[2].

فقال الأعمش: ما أرى عينيَّ عمـشت إلا من كثرة ما يبول الشيطان في أذني، قال أبو خالد الراوي عن الأعمش: وما أظنه فعل هذا قط.

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٧٣.

(٢) صحيح البخاري، التهجد رقم ١١٤٤ (٣/ ٢٨)، صحيح مسلم، باب المسافرين رقم ٢٠٥

قال الذهبي: يريد أن الأعمش كان صاحب ليل وتعبد[1].

فهـذا مثل من تواضع هذا الإمام الـكبير، وقـد كان هو وأمثـاله من الصالحين يهتمون بتحقير النفس وإخـفاء العمل الصالح قطعًا لموارد العجب والرياء، وادخارًا لثواب العمل كاملا في دار البقاء.

من مواقف سفيان الثوري ومالك بن أنس رحمهما الله:

قال الحافظ ابن كثـير في ترجمة الإمام أبى عمرو عـبدالرحمن الأوزاعى: وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: أفسحوا للشيخ حـتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه[2].

فهذا مثل جيـد لعلاقة المحبة والتواضع والاحترام بين العلمـاء، فالعلماء الثلاثة المذكورون كـانوا متعـاصرين، وكل واحـد منهم قد بلغ حدّا عـاليا من الشـهرة، فمالك إمـام أهل المدينة، والثورى إمام أهل الكوفة، والأوزاعـي إمام أهل الشام، ومع تقاربهم في مـستوي الـشهرة فإن الإمـامين مالك والثـوري قاما بهـذه المقابلة الكريمة للإمام الأوزاعي، وهذا دليل على فضلهما وقوة إيمانهما، حيث لم يَرَيَا في ذلك غضاضة من شأنهما ولا حطّا من قدرهما، بل بضد ذلك فإنهما بهذا السلوك العالي قد خلدا هذا المثل ليكون فيه قدوة لمن بعدهما من العلماء.

من مواقف عبدالله بن المبارك رحمه الله:

لقد كـان للعلماء اهتـمام بمعالجـة أمراض القلوب التي تنتج عن عـدم التحلي بخلق التواضع، وذلـك كالكبر والعـجب، ومن الأقوال في ذلك ما ذكـره الإمام الذهبي من خبـر أبي وهب المروزي قال: سـألت ابن المبارك: ما الكبـر؟ قال: أن تزدري الناس، فسألته عن العجب قال: أن ترى أن عندك شيئا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئا شرا من العجب[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣٢.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٦٠.

وقوله: «أن تزدري الناس» مأخوذ من قول رسول الله ﷺ «**ولكن الكبر مَنْ بَطِر الحق وغمط الناس**»[1]، وقد ذكر ابن المبارك الشق الثاني من أنواع الكبر وهو ازدراء الناس واحتقارهم، ولعله اقتصر على ذلك لأنه مراد السائل، أما الشق الأول فهو بطر الحق وذلك بأن يرتفع عن قبول الحق.

والكبر بنوعيه من الأخلاق الهدامة، فهو يعطل المواهب، ويقلل من الإنتاج الفكرى، ويبعث على الظلم وهضم الحقوق بالنسبة للمتكبر، وعلى الغل والحقد بالنسبة لمن يعاملهم المتكبر، إلى غير ذلك من المفاسد الكثيرة على الكبر.

أما العجب فهو قاصمة الظهر، لأن المرء إذا أعجب بنفسه أصيب بالغرور، وذلك يترتب عليه ضرر في الآخرة والدنيا، فأما ضرره في الآخرة فمنه الآثام المترتبة على الكبر من احتقار الناس والبحث عن عيوبهم وغير ذلك، وأما ضرره في الدنيا فإنه يُضعف من الإنتاج والتطلع نحو الكمال، لأن المعجب بنفسه يرى أنه قد بلغ درجات عاليةً من الكمال فلا يشعر بالنقص والحاجة إلى العمل، وهو من أضر المهلكات على طلاب العلم لأن من أعجب بنفسه احتقر من حوله، وربما احتقر أساتذته، فيمنعه ذلك من الاستفادة منهم، وربما حمله الغرور على عدم الاجتهاد في التحصيل والمذاكرة فيصاب بالإخفاق في الاختبار أو عدم التسديد في الكتابة فتكثر أخطاؤه.

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله:

من أخباره في الحلم والعفو ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته، قال: وركب يومًا في حُرَّاقة[2] فسمع ملاحا يقول لأصحابه: ترون هذا المأمون يَنْبُل في عيني وقد قتل أخاه الأمين -يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون- فجعل المأمون يبتسم ويقول: كيف ترون الحيلة حتى أنْبُل في عين هذا الرجل الجليل القدر؟[3].

فهذا مثل جيد في تقدير الولاة لمكارم الأخلاق، والحفاظ على السمعة الحسنة على طريق الفِعَال الحميدة ومحبة القلوب.

---

(١) سنن أبي داود، رقم ٤٠٩٢، اللباس (٤/ ٣٥٢)، سنن الترمذى رقم ١٩٩٩، البر (٤/ ٣٦٠).

(٢) نوع من السفن. (٣) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠.

من مواقف يزيد بن هارون رحمه الله:

من ذلك ما ذكره المروزي قال: قال لي أبو عبد الله -يعني الإمام أحمد بن حنبل- كنا عند يزيد بن هارون فوهم في شيء فكلمته، فأخرج كتابه فوجده كما قلت، فغيره، فكان إذا جلس يقول: يا ابن حنبل ادن، يا ابن حنبل ادن ههنا[1].

فهذا مثل من تواضع الحافظ يزيد بن هارون حيث أصلح الخطأ في كتابه على ما ذكر له الإمام أحمد، وصار يثني عليه ويقربه من مجلسه.

وذكر الإمام الذهبي من خبر جعفر بن ميمون بن الأصبغ قال: سمعت أبي يقول: كنا عند يزيد بن هارون وكان عنده المعيطي وأبو خيثمة وأحمد، وكانت في يزيد -رحمه الله- مداعبة، فذاكره المعيطي بشيء فقال له يزيد: فَقَدتُك، فتنحنح أحمد، فالتفت إليه فقال: من ذا؟ قالوا: أحمد بن حنبل، فقال: ألا أعلمتموني أنه ها هنا؟[2].

وهذا مثل آخر فى التواضع يقدمه الإمام يزيد بن هارون لأحد تلاميذه وهو الإمام أحمد بن حنبل، والتواضع من الكبير دليل على كمال العقل وعلو القدر.

موقف لإسماعيل بن عُلَيَّة رحمه الله:

ذكر الإمام الذهبي من رواية الأثرم قال: أخبرني عبد الله بن المبارك، شيخ سمع قديما[3] قال: كنا عند ابن علية، فضحك بعضنا وثَمَّ أحمد، قال: فأتينا إسماعيل -يعني ابن علية- بَعْدُ فوجدناه غضبان، فقال: تضحكون وعندي أحمد ابن حنبل[4].

فهذا مثل على تواضع الإمام ابن علية حيث غضب لضحكهم من أجل ابن حنبل ولم يغضب من أجل نفسه.

وهذا والذي قبله مثلان لما كان يتمتع به الإمام أحمد من هيبة وإكبار في النفوس، وحينما يَفرض الرجل العظيم هيبته على الناس مع اتصافه بالتواضع الجم، فإن هذا هو مجال الرفعة الحقيقية والشرف الكبير، أما حينما تكون الهيبة من الرجل لاتصافه بالكبر والصلف فإنها هيبة مصطنعة مُقَنَّعة بستر رقيق، وما

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤.
(٣) ليس هذا هو ابن المبارك الإمام المشهور.
(٤) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤.

أسرع ما تزول ويعـقبها المقت والسخرية حـينما تنحط مكانة ذلك الرجل، وتزول أسباب تسلطه وكبريائه.

موقف لقتيبة بن سعيد رحمه الله:

من أمثلة تواضع العلمـاء ما ذكره محمد بن يـوسف قال: كنا عند أبي رجاء -هو قتيبة- فسئل عن طلاق السكران، فقال: هذا أحمد بن حنبل وابن المديني وابن راهويه قد سـاقهم الله إليك، وأشار إلى مـحمد بن إسـماعيل -يعني البـخاري، وكان مذهب محـمد أنه إذا كان مغلوب العقل حتى لا يذكـر ما يُحدث في سكره أنه لا يجوز عليه من أمره شيء[1].

فهذا مثل من تواضـع أهل العلم بعضهم لبعض، حيث رد أبو رجاء قـتيبة بن سعيد الثقفي الفتيا إلى أبي عـبد الله البخاري مع أنه في طبقة تلاميذه، وأثني عليه بأنه قد جُـمِع فيه علم العلماء الكبـار من أمثال أحـمد بن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن راهويه.

موقف لأحمد بن حنبل رحمه الله

ذكر الحافظ الذهبي من خـبر صالح بن الإمام أحمد قال: كـان أحمد إذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك، رأيتَ عليه نعلا لا يشبه نعـال القراء له رأس كبير معقد وشراكه مسبل، ورأيتَ عليه إزارًا وجبَّة برد مخططة، أي لم يكن بزيِّ القراء[2].

فهـذا تواضع من الإمام أحـمد رحـمه الله تعـالى، حيث ترك اللبـاس الخاص بالعلماء مع ما يترتب على هذا اللباس من احترام الناس، وهذا مدخل من مداخل العجب والخيلاء، فاجتنب ذلك اللباس تواضعًا وتحريًا لدينه.

من مواقف إسحاق بن راهويه وإسماعيل بن أبي أويس رحمهما الله:

من ذلك ما رواه حاشد بن عبـد الله قال: كنا عند إسحاق -يعني ابن راهويه- وعَمْرو بن زرارة ثمَّ، وهو يستملي على البخاري، وأصحاب الحديث يكتبون عنه، وإسحاق يقول: هو أبصر مني، وكان محمد -يعني البخاري- يومئذ شابا[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤١٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٩.

وكذلك ما ذكره محمد بن أبي حـاتم أن الإمام أبا عبد الله البخاري قال: قال: لي إسماعيل بن أبي أويس: انظر في كتـبي وما أملكه لك وأنا شاكر لك ما دمت حيا[1].

فهـذان مثلان على تواضـع العلماء ورغبـتهم الأكيـدة في خدمة السـنة النبوية وتنقيتها من الشوائب وإن ترتب على ذلك تخطئتهم،وفي هذين الخبرين بيان تفوق الإمام البخاري في الـعلم وثقةُ العلماء الكبيرةُ فيـه، والجهدُ العظيم الذي بذله في تمحيص السنة النبوية وتخليصها مما خالطها من الكدر، رحمه الله تعالى.

من مواقف أبي عبد الله البخاري رحمه الله:

من ذلك ما رواه كاتب الإمام البخاري محمد بن أبي حاتم قال: وكنا بِفربَر وكان أبو عبد الله يبني رباطا مما يلي بخـاري فاجتمع بشر كثيـر يعينونه على ذلك، وكان ينقل اللَّبن، فكنت أقول له: إنك تُكفَـى يا أبا عبد الله، فيقـول: هذا الذي ينفعنا، ثم أخذ ينقل الزنبرات[2] معه، وكان ذبح لهم بقرة، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام وكـان بها مائة نفس أو أكثـر ولم يكن علم أنه يجتمع ما اجـتمع، وكنا أخرجنا معـه من فربر خبزا بثـلاثة دراهم أو أقل فألقيناها بأيديهم فـأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة، وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمناء[3] بدرهم[4].

فهذا مثل من تواضـع الإمام البخاري وتقديره للعمل الصـالح، فهو يشارك في بناء الرباط الخيـري مع وجود ذلك العدد الكبـير من الناس الذين يكفونه المهـمة، لأنه يفهمها على أنه عمل صالح وهو من أول من ينافسون على الخيرات.

من مواقف ابن هبيرة رحمه الله:

من الذين اشتهروا بالتواضع وحسن الأدب الوزير العالم العادل أبو المظفر يحيى ابن محمد بن هبـيرة الشيباني، ذكر الإمام الذهبي أنه تعلم الـعلوم الدينية والعربية حتى برع فيها، وأصابه الفقر فعـمل في مجال الكتابة وبرع فيها، وأن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله عيَّنه وزيرًا له، ثم صار وزيرًا لابنه المستنجد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٩.
(٢) جمع زنبر وهو الزنبيل، فارسية معربة
(٣) جمع مَنّ وهو زنة رطلين.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٥٠.

قال: وكان ديِّنا خيِّرًا متعبدا عاقلا وقورًا متواضعا، جَزْل الرأي، بارّا بالعلماء، مكبّا مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير الشأن حسنة الزمان.

وقال: قال ابن الجوزي: كان يتحدث بنعم الله، ويذكر في منصبه شدة فقره القديم، وقال: نزلت يومًا إلى دجلة وليس معي رغيف أعبُر به، وكان يُكثر مجالسة العلماء والفقراء ويبذل لهم الأموال، فكانت السَّنَة تدور وعليه ديون وقال: ما وجبت عليَّ زكاة قط.

وكان إذا استفاد شيئا من العلم قال: أفادنيه فلان، وقد أفدته معنى حديث، فكان يقول: أفادنيه ابن الجوزي فكنت أستحيي، وجعل لي مجلسًا في داره كل جمعة، ويأذن للعامة في الحضور، وكان بعض الفقراء يقرأ عنده كثيرًا فأعجبه وقال لزوجته: أريد أن أزوجه بابنتي فغضبت الأم.

وكان يُقْرَأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر فحضر فقيه مالكي فَذُكِرت مسألة فخالف فيها الجمع وأصرّ، فقال الوزير: أحمار أنت! أما ترى الكل يخالفونك؟! فلما كان من الغد قال للجماعة: إنه جرى مني بالأمس في حق هذا الرجل ما لا يليق، فليقل لي كما قلت له فما أنا إلا كأحدكم، فضجَّ المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتذار، وجعل يقول: القِصاصَ القصاص، فلم يزل حتى قال يوسف الدمشقي: إذ أبي القصاص فالفداء، فقال الوزير: له حكمه، فقال الفقيه: نِعَمُك عليّ كثيرة فأيّ حكم بقي لي؟ قال: لابُدَّ، قال: عليّ دينٌ مئة دينار، فأعطاه مئتي دينار، وقال: مائة لإبراء ذمته، ومائةٌ لإبراء ذمتي[1].

وبعد فإن هذا العالم الجليل الذي بلغ منزلة كبرى من المسؤولية في دولة الإسلام يُعدُّ مثلا من العلماء العاملين، فقد نجح نجاحا كبيرًا في سياسة الدولة، حيث طبق حصيلة علمه الواسع النافع في إدارة الأمور ومعاملة الراعي والرعية، كما نجح في العلم، وذلك بمدارسة العلماء والعناية بهم، وتأليف المؤلفات النافعة التي أهمها كتابه النافع «الإفصاح عن معاني الصحاح» وقد شرح فيه صحيحي الإمامين البخاريِّ ومسلم في عشرة مجلدات.

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٢٦-٤٢٩.

وفي الخبر المذكـور مواقف لهذا الوزير الجليل فمنها كرمـه الفياض الذي أذهب ماله حـتى أصبح لا مال له تجب فيـه الزكاة، وسبَّب تراكم الديون عليه مـع كثرة دخله المالي لعلو منصبه.

ومنهـا تواضعـه الجمّ وذلك في مثل مـا جرى منه حـينما نسب الفـضل لأهله واعترف للعلمـاء بما استفاده منهم من العلم، وكـذلك حينما أراد أن يزوج طالب العلم الفقـير من ابنته، وقد سـار في ذلك على منهج الإسلام في اعتبـار الكفاءة الدينية، ولم يعتبر الفوارق الاجتماعية المعروفة.

كما يظهر تواضـعه حينما اعتذر لذلك الفقيـه من كلمته التي بدرت منه نحوه، وألحَّ عليه في أخذ القـصاص منه، إلى أن أنقذ الموقف أحد العلماء باقـتراح أخذ الفداء، فأعطى ذلك الفـقيه ضعفَ ما طلب، وهذا يدل عـلى ورعه العظيم حيث شغلَت بالَه تلك الكلمة، وخاف من مغبتها في الآخرة فأراد أن يصفِّي حسابها في الدنيا.

وهذه المواقف تدل على قـوة إيمانه ورسوخ يقينه، لأن هذا السـلوك العالي من آثار ذلك.

ومن مواقف ابن هبيـرة في التواضع والوفاء ما ذكر الحـافظ ابن رجب من خبر أبي بكر التيمي قـال: ولقد كنا يوما بالمجلس على العادة لسـماع الحديث إذ دخل حاجبه أبو الفضائل بن تركمان فـسارَّ الوزير بشيء لم يسمعه أحد فقال له الوزير: أدخل الرجل، فأبطأ عليه فقال الوزير: أين الرجل؟ فأبطأ فقال: أين الرجل؟ فقال الحاجب إن معه شملة صوف مكورة وقد قلـت له: اتركها مع أحد الغلمان خارجا عن السـتر وادخل، قـال: لا أدخل إلا وهي معي، فـقال له الوزير: دعـه يدخل وهي معه، فخرج وعـاد وإذا معه شيخ طُوال من أهل السواد[1] وعليه فوطة قطن وثوب خام، وفي رجليه جـمجمان، فسلَّم وقال للوزير: يا سـيدي إن أم فلان – يعني أم ولده– لما علمت أني متوجه إليك قـالت: بالله سلِّم لي على الشيخ يحيى عني، وادفع إليه هذه الشـملة فقد خبـزتها على اسمـه، فتبسم الوزير إليـه وأقبل

(١) أي من ريف العراق.

عليه، وقال: الهدية لمن حضر، وأمر بحلِّها، فحُلَّت الشملة بين يديه، وإذا فيها خبز شعير مشطور بكامخ أكشوت، فأخذ الوزير منه رغيفين وقال: هذا نصيبى، وفرَّق الباقي على من حضر من صدور الدولة والسادة الأجلة، وسأله عن حوائجه جميعها، وتقدم بقضائها على المكان، ثم التفت إلى الجماعة وقال: هذا شيخ قد تقدمتْ صحبتي له قديما، واختبرته في زرع بيننا فوجدته أمينا، ولم يظهر منه -أى الوزير- تأفف بمقال الشيخ ولاتكبر عليه ولا إعراض عنه، بل أحسن لقاءه وقضى حوائجه وأجزل عطاءه.

ثم حكى أنه كان بينه وبين هذا الشيخ زرع، وأنهم خشوا عليه من جيش عظيم نزل عندهم، فقرؤوا على جوانبه القرآن فسَلِم ولم يُرَعْ منه سنبلة واحدة[1].

فهذا مثل من اتصاف الوزير ابن هبيرة بخلق التواضع والوفاء، حيث لم يتكبر على ذلك الرجل الفقير، ولم ينس ما بينه وبينه من معاملة قديمة يوم أن كان ابن هبيرة مثل ذلك الرجل في الفقر والعمل.

***

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦٢.

توجيهات ومواقف
في
الصبر على المكاره

نماذج من صبر النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم:

تقدم ذكر نماذج من صبر النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم على الأذى في كتاب «مواقف دعوية من السيرة النبوية» والمقصود هنا بيان نماذج من صبر النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم على شظف العيش وشدته، وقد وردت في ذلك أحاديث منها ما أخرجه الحافظان مسلم والترمذي واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرجُ فيها ولا يَلقَاهُ فيها أحد، فأتاهُ أبو بكر فقال: ما جاء بك يا أبا بكر؟ فقال: خرجت ألقى رسولَ الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: ما جاء بك ياعمر؟ قال: الجوع يا رسول الله؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: وأنا قد وجدت بعض ذلك، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَّيِّهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خدمٌ فلم يجدوه فقالوا لامرأته أين صَاحبُك؟ فقالت: انطلقَ يستْعذبُ لنا الماءَ، فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يزعبُها[1] فوضعها ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويُفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فَبَسَط لهم بساطًا، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقنو فوضعه، فقال النبي ﷺ، **أفلا تنقيت لنا من رُطبه؟** فقال: يا رسول الله إني أردتُ أن تختاروا، أو قال تخيروا من رطبه وبُسْره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله ﷺ: **هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طَيِّبٌ، وماءٌ باردٌ،** فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعامًا، فقال النبي ﷺ **لاتذبحنَّ ذاتَ دَرَّ،** قالَ: فَذَبَحَ لهم عنَاقًا أو جَديًا فأتاهم بها فأكلوا، فقال النبي ﷺ: **هل لك خادمٌ؟** قال لا، قال: **فإذا أتانا سبيٌ فائتنا** فأُتي النبيُّ ﷺ برأسين ليس معهما ثالثٌ فأتاهُ أبو الهيثم، فقال النبي ﷺ: اختَرْ منهما، فقال: يا نبي الله **اخترْ لي،** فقال النبي ﷺ: **إن المستشارَ مُؤتمنٌ، خذ هذا فإني رأيته يُصلِّي واستوص به معرُوفًا،** فانطلقَ أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأتهُ: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تعتقه، قال: فهو عتيقٌ؟ فقال النبي ﷺ: **إن الله لم يبعث نبيًا ولا خَليفةً إلا وله**

(١) يزعبها أي يتدافع بها وهو يحملها.

بطانتان بطـانةٌ تأمُرُهُ بالمعروف وتنهـاهُ عن المنكر، وبطانةٌ لا تألُوهُ خبـالاً، ومن يُوقَ بطانةَ السُّوء فقد وُقِى[1].

هذا الحديث فيه إشارات جليلة لمقاصد نبيلة.

فالمقصد الأول بيان ما كان يتحلى به رسول الله ﷺ وأصحابه من الصبر الجميل على شظف العيش وقلة ذات اليد، حيث تعرضـوا للجوع الذي يُعدُّ من العلامات الظاهرة على عدم توافر ضـرورات المعيشة، وإذا كان الإنسان قـد ألف منذ نعومة أظفاره على حياة الفقـر والعيش على المستويات المتدنية للمعيشـة فإن المصيبة تكون أهون والخطب يكون أيسـر، لما للإلف الطويل من أثر علـى النفوس فى احـتمـال الواقع الذي تعيش فيه وإن كان شاقًا صعب الاحتمال، ولكن حينما تكون النفوس قد ألفت على أنماط معينة مـن بسط المعيشة ثم تفاجأ بحيـاة تتسم بالخشونة ونقص الموارد الضرورية للحيـاة فإن احتمال ذلـك يحتاج إلى درجات عاليـة من الصبر، وهكذا كان واقع رسول الله ﷺ وأصـحابه المهاجرين فى المدينـة، ولهذا كان ذلك الواقع المعين وما تم في سبيل مواجهتـه من الأخلاق الإسلامية الكريمة يُعدُّ دروسًا عالية في مواجهة الشدائد واحتمال المصائب.

والمقصد الثـاني في قول رسول الله ﷺ «**هذا والذي نفسي بيـده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القـيامة**» ففي هذا تذكيـر بليغ بنعم الله تعالى العظيمـة على عباده وتوجيه سـديد نحو شكر المنعم جل وعلا، وإذا كـان الظِّل البارد والرُّطَب الطيب والماء البارد من النعيم الذي يسـأل عنه العباد يوم القيامـة فكيف بأنواع النعيم التي يعيش فيها الناس فيما لا يُعدُّ معه ما ذُكر إلا قليلاً؟!

والمقصد الثالث في قول رسول الله ﷺ «**لا تَذبحنَّ ذات دَرّ**» ففي ذلك توجيه نبوي سديد نحو مـراعاة الجوانب الاقتصادية للأمة، حـيث إن المواشي يتم اقتناؤها لما ينتج عنها من المنافع التي من أبرزها الاستـفادة من لحمها ولبنها، فـإذا كانت ذات لبن فإن المنافع الاقتصادية تقـتضي إبقاءها للاستفادة من لبنهـا لبني الإنسان ولتغذية أولادها، وهذه اللفتة الكريمة تشمل مراعاة كل الأمور التي تحقق منافع اقتصادية للأمة.

(١) سنن الترمذي، رقم ٢٣٦٩، كتاب الزهد (٤/ ٥٨٤ - ٥٨٥) صحيح مسلم رقم ٢٠٣٨، كتاب الأشربة، (ص ١٦٠٩).

والمقصد الرابع في قول الرسول ﷺ «**إن المستشار مؤتمن**» فالمستشير يبني كل مخططاته وأعماله غالبًا على مشورة من يشير عليه، لأنه لم يستشره إلا لأنه يثق به ثقة كبيرة، فمن الأمانة أن يُخلص المستشار في مشورته وأن يَمحض من استشاره النصح.

والمقصد الخامس في ثناء النبي ﷺ على ذلك المملوك بأنه يصلي وتوصية مالكه بإسداء المعروف إليه، وفي هذا بيان لعظمة الصلاة ومنزلتها في تحقيق الاستقامة، فالذي يصلي لله تعالى بإخلاص ونية صادقة فإن ذلك دليل على قوة إيمانه، كما أن هذه الصلاة يكون لها الأثر الكبير في تزكية فاعلها وصلاحه.

والمقصد السادس في الحرص الشديد على تقديم العمل الصالح الذي تمثل في مشورة امرأة أبي الهيثم بن التَّيِّهان الموفقة على زوجها بأن يعتق ذلك المملوك ليبلغ بذلك الحد الأعلى من تنفيذ وصية رسول الله ﷺ به، ثم في إقدام ابن التيهان على إعتاق ذلك المملوك، وقد حازت تلك المرأة من رسول الله ﷺ على الثناء عليها بسبب ذلك حيث وصفها بأنها بطانة خير، وفي ذلك السلوك الحميد من ابن التيهان وامرأته رضي الله عنهما قدوة حسنة في تقديم الأعلى على الأدنى وذلك في تفضيل الأجر الأخروي على النفع الدنيوي، وفيما تلا ذلك من ثناء النبي ﷺ على عملهما الصالح توجيه لأفراد الأمة نحو المسارعة إلى الأعمال الصالحة.

ولقد كان المهاجرون وهم في مكة قبل الإسلام في رغد من العيش، فلما جاء الإسلام وعاداه أكثر كبراء مكة ضيقوا على بعض المسلمين في معيشتهم كما سبق بيان ذلك، ثم لما هاجروا تركوا جميع أموالهم للمشركين وواجهوا حياة الفقر في المدينة، وقد كانت لهم مواقف في الصبر تُعدُّ نموذجًا يحتذى لمن بعدهم.

ومما يصور بعض ما واجهوه من ذلك ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله من طريق صالح بن كيسان عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه، فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدة فاستضلعنا بهما وقوينا عليهما، فأما مصعب بن عمير فإنه كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا، فلما أصابه ما أصابنا لم يقو على ذلك، فلقد رأيته وإن

جلده ليتطاير عنه تطاير جلد الحية، ولقد رأيته يُنقطع به فما يستطيع أن يمشي، فنعرض له القِسِيَّ ثم نحمله على عواتقنا، ولقد رأيتني مرة قمت أبول من الليل فسمعت تحت بولي شيئًا يجافيه، فلمتست بيدى فإذا قطعة من جلد بعير، فأخذتها فغسلتها حتى أنعمتها ثم أحرقتها بالنار، ثم رضضتها فشققت منها ثلاث شقات فاقتويت بها ثلاثًا[1].

وهذا تصوير واضح لما كان يعاني منه المسلمون في أول الإسلام من شدة العيش وخشونة الحياة، وقوله «كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه» المراد بالصبر هنا الإلف والاعتياد ومرونة الأجسام على حياة الفقر والشدة وليس المراد انتفاء الصبر النفسي فإن الصحابة رضي الله عنهم لقوة إيمانهم كانوا في قمة الصابرين، يدل على ذلك قوله «فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدة فاستضلعنا بهما وقوينا عليهما» يعني فالصبر النفسي موجود قبل ذلك، ولكن حياة الاعتياد والانسجام كانت أظهر في المدينة، وظل عدم الإلف والانسجام واضحًا في حياة مصعب بن عمير حتى بعد الهجرة، وذلك لتميزه بنوع من حياة الترف والنعيم قبل الإسلام وعلى الرغم مما عرض له من هذا التحول المفاجئ في حياته وما قامت به أمه وقومه من التضييق عليه فإنه ظل صابراً محتسبًا.

ولقد كان النبي ﷺ يتأثر لِمَرآه وهو يقارن حاله تلك بحاله الأولى، كما أخرج الإمام الترمذي وحسنه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو (يعني بجلد) فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو فيه اليوم، ثم قال رسول الله ﷺ: **كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة، وَوُضِعَتْ بين يديه صحفة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة؟** قالوا: يا رسول الله نحن يؤمئذ خير منا اليوم، نتفرغ للعبادة وَنُكْفَى المؤنة، فقال رسول الله ﷺ: **لا أنتم اليوم خير منكم يومئذ**»[2].

(١) سير أعلام النبلاء ١/١٤٨، أسد الغابة ٤/ ٣٦٩ .

(٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٧٦ (٤/ ٦٤٧).

وبهذا نبههم النبي ﷺ إلى أن الاستقامة على الدين لا تكون مع حياة الترف والإسراف، لأن هذا النوع من الحياة يُورث القلوب قساوة وجفاء. وقلَّ من يشكر عند الرخاء فيبقى على مستواه من الإيمان في حال الشدة والرخاء.

ولقد كان لتوجيهات النبي ﷺ أثر واضح في حياة الصحابة رضي الله عنهم، فقد فهموا أن الابتلاء مع الصبر والاحتساب كفارة للخطايا، وفي ذلك يقول ﷺ «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**» أخرجه الإمام مالك والترمذي بإسناد حسن(١).

وفهموا أن الصبر على البلاء رفع للدرجات يوم القيامة وأن ابتلاء المؤمن من محبة الله تعالى له، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ «**إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**» أخرجه الإمام الترمذي بإسناد حسن(٢).

وأخذوا العبرة من ابتلاء الأنبياء عليهم السلام واقتدوا بهم في الصبر والاحتساب، يقول رسول الله ﷺ «**أشد الناس بلاءالأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابْتُلِيَ على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**» أخرجه الإمام الترمذي وقال: حسن صحيح(٣).

ومما يصور ما كان فيه المسلمون في العهد النبوي من شدة العيش ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير: ابْنَ أختي إن كنا لننتظر الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقِدَتْ في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: ما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم فيسقيناه»(٤).

---

(١) موطأ مالك ١/ ٢٣٦، سنن الترمذي رقم ٢٤٠١، في كتاب الزهد.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزهد رقم ٢٣٩٨.

(٣) سنن الترمذي، الزهد، باب ٤٥ (٧/ ٧٨).

(٤) صحيح البخاري رقم ٦٤٥٩، كتاب الرقاق (١١/ ٢٨٣).

ويصور ذلك ما جاء في قـول أبي هريرة رضي الله عنه: لقد رأيتني وإني لأخرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مـغشيًا عليَّ، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويُرى أني مجنون ومابي من جنون وما بي إلا الجوع»[1].

هذا أبو هريرة الذي كـان مثلا من أمـثلة المهاجـرين الذين كانوا في يـسار من العيش في بلادهم، فهاجروا بدينهم وصبروا على ما نالهم من البلاء.

ومن هؤلاء علي بن أبي طالب رضي الله عنهـم، وقد ذكر صـورة مما ناله من شدة العيش والجوع حيث يقـول: خرجت في يوم شاتٍ من بيت رسول الله ﷺ، وقد أخذت إهابا معطونًا[2] فجوَّبت وسطه[3] فأدخلته في عنقي وشددت وسطي فحزمته بخوص النخل وإني لشديد الجوع، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئًا، فمررت بيهودي في مال له وهو يسقي ببكرة له، فاطَّلعت عليـه من ثلمة في الحائط، فقال: مـالك يا أعرابي، هل لك في دلو بتمـرة؟ فقلت: نعم، فافـتح الباب حتى أدخـل، ففتح فدخـلت فأعطاني دلوه، فكلما نزعت دلوا أعطاني تمرة، حتى إذا امتلأت كفِّي أرسلت دلوه وقلت: حسبي فأكلتهـا، ثم جرعت من الماء فشربت، ثم جـئت المسجد فوجـدت النبي ﷺ فيه» أخرجه الإمام الترمذي وقال: حسن غريب[4].

ولقد كان لهـؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أسوة حـسنة برسول الله ﷺ الذي يقول «**لقد أُخفْتُ في الله وما يَخاف أحـد ولقد أوذيت في الله وما يُؤذى أحد، ولقد أَتت عليَّ ثلاثون من بين يوم ولـيلة ومالي ولـبلال طعـام يأكله ذو كـبـد إلا شيء يواريه إبط بلال**» أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[5].

وإن هذه النماذج لتدلنا علـى مبلغ ما كان يعاني منه المسلمـون من شدة العيش في ذلك العهـد، ولقد قـابلوا ذلك بالرضى والتسليم والصـبر الجـميل، ولم يرو

---

(١) صحيح البخاري رقم ٧٣٢٤، كتاب الاعتصام (١٣/ ٣٠٣).

(٢) يعني جلدًا منتن الرائحة.

(٣) أي خرقته فجعلته جيبًا.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي، رقم ٢٥٩١ كتابة صفة القيامة (٧/ ١٧١).

(٥) تحفة الأحوذي، رقم ٢٥٩٠ (٧/ ١٧٠)، سنن ابن ماجة رقم ١٥١، المقدمة (١/ ٥٤).

التـاريخ أن أحـدًا من المهـاجرين الصـادقين ترك المدينـة ورجع إلى بلده من أجل ضعف احتماله وقلة صبره، وهذا دليل ظاهر على قوة إيمانهم ومبلغ تضحيتهم.

وهؤلاء الصابرون على البـلاء حينما تحوَّلَتْ حالهم إلى الرخـاء لم يتكبروا ولم يبطروا بل كانوا من الشاكـرين للنعماء، فكانوا بحق مؤمنين متـصفين بقول رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**» أخرجه الإمام مسلم(١).

ومما يصور مـا كان يعاني منه الصـحابة رضي الله عنهم من الشدة ومـا علَّمهم النبي ﷺ من الصبـر والزهد ما أخرجـه الإمام البخـاري من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه «أن فاطمـة عليها السلام شكَتْ مـا تَلْقَى من أثر الرَّحَى فأُتِيَ النبيُّ ﷺ بسَبْي، فانطلقتْ فلم تجـده، فوجدت عائشة فأخبـرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبـرته عائشة بمجيء فاطـمة ، فجاء النبي ﷺ إلينـا وقد أخذْنا مضـجعنا، فذهـبتُ لأقوم فـقال: **على مكانكمـا**، فقـعد بيننـا حتى وجدتُ بَـرْدَ قدمَيـه على صدري، وقال: **ألا أعلِّمكما خيرًا مما سـألتماني؟ إذا أخذتما مضاجـعكما تكبِّران أربعًا وثلاثين، وتسبحان ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**»(٢).

وهكذا كانت هذه الأسرة الكريمة تعيش في شظف من العيش، فعليّ رضي الله عنه كان لابدَّ له من أجل الحـصول على الطعام من أن يؤَجِّر نفـسه في إخراج الماء من الآبار، وكان لابد لفاطمة رضي الله عنها من أن تطحن بالرحى.

وكانا صابرين على هذه الحـياة الشاقة، ولكن حينمـا آنَسَا بابًا من أبواب الفرج طلبا من النبي ﷺ خـادمًا، ولكن النبي ﷺ الذي يدرك من أحوال أصـحابه مالا يدركان قد أردك بأن هناك من هم أشد منهما فقرًا وأحوج منهما إلى المعونة، وهم أهل الصفة الذين لا مـال لهم ولا أهل، فقرر أن يبيع ذلك السبي وأن يرد قـيمته على أولئك الفقـراء كي ينقذ حياتهم من المسـغبة(٣)، وهذه نظرة عالية من رسول

(١) صحيح مسلم، الزهد، رقم ٢٩٩٩، (ص ٢٢٩٥).
(٢) صحيح البخاري، رقم ٣٧٠٥، فضائل الصحابة (٧/ ٧١).
(٣) جاء ذلك في رواية ذكرها ابن الجوزي - صفة الصفوة ٢/ ١٠.

الله ﷺ إلى المستضعفين من أصحابه، ودرس بليغ لمن ولاه الله تعالي أمر الأمة أن لا يحابِيَ أقاربه على حساب من هم أشد حاجة وأبلغ استحقاقًا.

وفى هذا الخبر درس آخر في غاية الأهمية حيث جاء النبى ﷺ إلى ابن عمه علي وابنته فاطمة رضي الله عنهما فزوَّدهما بما هو خير لهما مما سألاه، فقد زودهما بذكر الله تعالى الذي هو زاد القلوب وحياتها.

وقد يتعجب الإنسان كيف يطلبان خادمًا فيرشدهما النبي ﷺ إلى ذكر الله تعالى، ولكن حينما يعرف المتأمل ما لذكر الله جل وعلا من أثر عظيم في تقوية النفوس فإنه يزول ذلك العجب، فإن القلوب إذا عُمرتْ بذكر الله سبحانه هانت عليها المصائب، وسَمَتْ في أفكارها المطالب، وأصبح أصحابها يستعذبون الشدائد في سبيل الله تعالى، ويرون أنها أبواب خير لرفع رصيدهم من الحسنات، وخفض رصيدهم من السيئات.

موقف لأبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما[1]:

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم. فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. قال فجاء فقربت إليه عشاءً. فأكل وشرب. فقال ثم تَصَنَّعتْ له أحسن ما كان تَصَنَّع قبل ذلك. فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة! أرأيت لو أن قومًا أعارُوا عاريتهم أهل بيتٍ، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال فغضب وقال: تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان. فقال رسول الله ﷺ «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**» قال فحملتْ. قال فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معهُ. وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر، لا يطرُقُها طرُوقًا[2]. فدنوا من المدينة فضربها المخاض[3]. فاحتبس عليها أبو طلحة. وانطلق رسول الله ﷺ. قال يقول أبو طلحة: إنك لتعلم، يارب! إنه يُعجبني أن أخرج

(١) أبو طلحة هو زيد بن سهل النجاري الأنصاري.

(٢) أي لا يدخلها في الليل.

(٣) هو الطلق ووجع الولادة.

مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى. قال تقول أم سليم: يا أبا طلحة! ما أجد الذي كنتُ أجد[1]. انطلق. فانطلقنا. قال وضربها المخاضُ حين قدما. فولدت غلاما. فقالت لي أمي: يا أنسُ لا يُرضعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ. فلما أصبح احتملتهُ. فانطلقتُ به إلى رسول الله ﷺ. قال فصادفتهُ ومعهُ ميسمٌ[2] فلما رآني قال «**لعلَّ أم سليم ولدت؟**» قلتُ: نعم. فوضع الميسَمَ. قال وجئتُ به فوضعته في حجره. ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكها في فيه حتى ذابت، ثم قذفها في في الصبي، فجعل الصبي يتلمظها، قال رسول الله ﷺ: **انظروا إلى حب الأنصار التمر**، قال: فمسح على وجهه وسماه عبدالله[3].

وجاء في رواية عباية بن رفاعة الأنصاري «فلقد رأيت لذلك الغلام سبعة بنين كلهم قد ختم القرآن»[4].

وهكذا كان أبو طلحة وأم سليم رضي الله عنهما مثلا عاليا في الصبر على البلاء، فلقد كانا يحبان ابنهما حبّا شديدا فأراد الله عز وجل أن يبتليهما بفقد هذا الولد حتى ينالا أجر الصابرين، ولقد ظهر في هذا المثل العالي نموذج من البَشر يقدم محبة الله جل وعلا على محبة أحب شيء إليهم.

ولقد كانت أم سليم امرأة عظيمة، حيث صبرت هذا الصبر القوي، وظهرت أمام زوجها وكأنها تخلو من أي مصيبة، إن هذه المرأة التقية الصابرة كانت تتمتع بإيمان راسخ قد خالط شغاف قلبها فاستطاعت أن تكتم مشاعر الحزن على ابنها رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر.

وكان للتوجيهات الإسلامية أثر كبير في نفس تلك المرأة المؤمنة، فقامت بدور فعال في تهدئة زوجها حتى نام ليلته في راحة وطمأنينة، وكانت ترجو من الله عز وجل أن يكافئها على صبرها بولد صالح يعوضها عن ابنها الذي فقدته.

---

(١) تريد أن الطلق انجلى عنها، وتأخرت الولادة.

(٢) هو الآلة التي يكون بها الحيوان. من الوسم. وهو العلامة.

(٣) صحيح مسلم، رقم ٢١٤٤، فضائل الصحابة (ص١٩٠٩).

(٤) فتح الباري ٣/ ١٧١.

وظفر هذان الزوجان الكريمان بدعوة مباركة من رسول الله ﷺ، وقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوة فحملت أم سليم وظهرت تباشير إجابة الدعوة بما شعرت به من خفة الحمل وعدم التعرض لما كانت تتعرض له من آلام، ثم ظهرت بركة هذه الدعوة بما أنعم الله تعالى به على ولدهما من للبنين الذين حفظوا القرآن الكريم.

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه :

ومن أمثلة الصبر على الشدائد ما جاء في خبر إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل هذا الخبر من رواية محمود بن لبيد عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه قال: كنت رجلا فارسيًا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جَيّ، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، وأجهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوما فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلعها وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصْل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

قال: ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله قال: فلما جئته قال: أي بني أين كنت ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قالت قلت: يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه قال قلت: كلا والله إنه خير من ديننا قال: فخافني فجعل في رجلي قيدا ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثتُ إلى النصارى فـقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، قال: فأخبـروني بهم قال فقلت لهم: إذا قـضوا حوائجهم وأرادوا الرجـعة إلى بلادهم فآذنوني بهم، قال: فلمـا أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فـألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيـسة، قال: فجئته فـقلت: إني قد رغبت في هذا الدين وأحـببت أن أكـون مـعك أخدمك في كنيـسـتك وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فـإذا جمعوا إليه منها أشـياءً اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حـتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق[1]، قال: وأبغـضته بغـضا شديدا لما رأيتـه يصنع، ثم مات فاجـتمـعتْ إليه الـنصارى ليـدفنوه فقلت لهم: إنَّ هذا كـان رجل سوء يأمـركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علـمك بذلك؟ قال قلت: أنا أدلكم على كنزه قالوا فدلنـا عليه، قال: فأريتهم موضعـه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال ممـلوءة ذهبا وورِقا، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا فـصلبوه ثم رجموه بالحجـارة ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه بمكانه.

قال يقـول سلمان: فـما رأيت رجـلا لايصلى الخمس أرى أنه أفـضل منه ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه[2] قال فأحببته حبا لم أحبه مَنْ قـبله وأقمت معه زمـانا ثم حضرتْه الوفاة فـقلت له يا فلان إني كنت معك وأحببـتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضـرك ما ترى من أمر الله فإلى من توصي بي وما تأمرنـي؟ قال أي بني والله ما أعلم أحدا اليوم على مـا كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان فهو على ماكنت عليه فالحْق به.

(١) الورق بكسر الراء الفضة.

(٢) قوله «لا يصلى الخمس» أي ليس من المسلمين.

قال: فلما مات وغيِّب لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان إن فلانًا أوصانى عند موته أن الحق بك وأخبرنى أنك على أمره، قال فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلانًا أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى، فإلى من توصى بي وما تأمرنى؟ قال أى بنى والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به.

قال: فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبثت أن نزل به الموت، فلما حُضر قلت له: يا فلان إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وما تأمرني؟ قال: أي بني والله ما نعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته قال: فإنه على أمرنا.

قال: فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري فقال: أقم عندي فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنَيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حُضِر قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وما تأمرني؟ قال: أي بني والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلَّك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوّة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثم مات وغُيِّب فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجارا فقلت لهم تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا نعم فأعطيتهموها وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدا فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يخف لي في نفسي، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن

عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعنى منه فـاحتملني إلى المدينة فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفـتها بصفة صاحبي، فأقمت بهـا وبعث الله رسوله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق لسيـدي أعمل فيه بعض العمل وسيـدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقـال: يا فلان قاتل الله بني قيلة والله إنهم الآن لمجتمـعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي، قال: فـلما سمعتها أخذتني العرواء[1] حتى ظننت سأسقط على سيـدي قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك ماذا تقول ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال: مالك ولهذا أقبل على عملك، قـال قلت لا شيء إنما أردت أن أستثبت عما قال.

وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقبـاء فدخلت عليـه فقلت له: إني قـد بلغني أنك رجل صـالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهـذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم، قـال: فقربته إليـه فقال رسول الله ﷺ لأصحـابه: كلوا وأمسك يده فلم يأكل، قال فقلت في نفسي: هذه واحدة.

ثم انصرفت عنه فـجمعت شيـئًا وتحوّل رسـول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمـتك بها قال: فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

قال: ثم جئت رسـول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، وقـد تبع جنازة من أصحابه عليه شـملتان له وهو جـالس في أصحابه فـسلمت عليه، ثم اسـتدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبـي فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستـثبت في شيء وصف لي، قال: فـألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفتـه فانكببت عليه أقبِّله وأبكي، فقال لي رسـول الله ﷺ تحوَّل فتحوّلت فقصصت عليـه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قـال: فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

---

(١) أي الرعدة الشديدة.

ثم شغل سلمانَ الرقُّ حتى فـاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، قال ثم قال لي رسول الله ﷺ: كـاتبْ يا سلمان فكاتبت صاحبي عـلى ثلاثمائة نخلة أُحييـها له بالفقير[1] وبأربعين أوقية، فـقال رسول الله ﷺ لأصحابه أعينوا أخـاكم فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وديَّة[2] والرجل بعشـرين والرجل بخمس عـشرة والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجـتمعت لي ثلاثمائة ودية، قال لي رسول الله: اذهب يا سلمـان ففقِّـر لها[3] فإذا فـرغت فائتني فأكـون أنا أضعهـا بيدي، ففقَّرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليهـا فجعلنا نقرب له الوديَّ ويضعه رسـول الله ﷺ بيده فو الذي نفس سلمان بيده ما ماتت منهـا ودية واحدة، فأدَّيت النخل وبقي عليَّ المال فأُتِي رسولُ الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجـة من ذهب من بعض المغازي، فقال: **ما فعل الفارسي المكاتَب؟** قال: فدُعـيت له فقال: **خذ هذه فأدِّ بهـا ما عليك يا سلمان**، فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليّ؟ قال: **خذها فإن الله عز وجل سيؤدِّي بها عنك**، قال: فأخذتها فوزنـت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، فأوفيـتهم حقهم وعتقت وشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق ثم لم يفتني معه مشهد[4].

وهذه القصة تبين لنا ما كان يتـصف به سلمان رضي الله عنه من الصبر الطويل على المشاقِّ الجَمَّة والصـعاب المتواصلة من أجل الوصول إلى الدين الحق، وإن في قصـته لـعبرة لأولـي الألباب الذين ينظرون بعين الاعـتبـار لمستـقبلهـم الأخروي فيسخرون له حـياتهم الدنيا، فقد صبر على حبس أبيـه وقْيده أوَّلاً، ثم صبر على السفر والتنقل من عابد إلى عابد حـتى دلَّه العابد الأخير على الطريق الثابت الذي لا يزوال بزوال عبَّاده وعلمائه.

---

(١) الفقير الحفرة التي تحفر للنخلة كي تغرس فيها. (٢) الوديَّة الفسيلة.

(٣) أي احفر لها في الأرض.

(٤) مسند أحمد ٥/ ٤٤١ - ٤٤٤. وذكره الحافظ الهيثـمى وقال: رواه أحمد كله والطبراني في الكبير بنحوه بأسانيده، وإسناد الرواية الأولى عند أحمد والطبراني رجالها رجال الصـحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع، والرواية الثانية انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبي قرة وهو ثقة - مجمع الزوائد ٩/ ٣٣٦.

فلما عـرف أن الطريق المستـقيم في أن يبـحث عن هذا النبي المنتظر فـيؤمن به ويتبعه، ضحى بماله وراحته من أجل الوصول إليـه، وتحمل الرِّقَّ صابرا محتسبا ما دام أنه سيبلغه إلى هدفه المنشود.

ونجد في هذه القـصة عناية الله تعالى بسلمـان حيث قاده توفـيق الله تعالى من مرحلة إلى أخرى حتى بلغ أرض الهجرة النبـوية، فاطمأن بها منتظرًا قدوم رسول الله ﷺ.

ومن خلال هذا الخبر يتبـين لنا شيء من علامات النبي ﷺ المذكورة في الكتب السابقة وهي أنه يأكل الهـدية ولا يأكل الصدقة، وأن بين كتفيـه خاتم النبوة، وأنه يبعث في مكة ويهاجر إلى المدينة، وأن أهل الكتاب كـانوا يعرفون زمن بعثته على التقريب لما جاء في الخبر من قول الراهب لسلمان «قد أظلَّك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم».

وقد كـان ذلك كافيـا لدفع اليهود والنصـارى إلى أن يكونوا أول من يؤمن به، ولكنهم مع ذلك عـادوه اتباعا للهـوى وقاتلوه، إلا القليل ممـن دخل في الإسلام منهم كسلمان الفارسي وعبدالله بن سلام رضي الله عنهما.

من مواقف عبدالله بن حذافة السهمي رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكر الإمام الذهبي من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع قال: وجَّه عمر جيشًا إلى الروم فأسروا عبدالله بن حذافة فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب مـحمد، فقال: هل لك في أن تتنصَّـر وأعطيك نصف ملكي؟ قال: لو أعطيتني جميع مـا تملك وجميع ملك العرب ما رجعت عن دين مـحمد طرفة عين، قال إذًا أقـتلك، قال: أنت وذاك، فأمـر به فصُلب، وقـال للرماة: ارموه قـريبا من بدنه، وهو يعرض عليـه ويأبى، فأنزله ودعا بقـدر فصُبَّ فيـها ماء حتى احـترقت، ودعا بأسيـرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فـأُلقِي فيها وهو يعرض عليـه النصرانية وهو يأبى، ثم بكى فـقيل للملك: إنه بـكى، فظن أنه قد جـزع، فقـال: ردُّوه، ما أبكاك؟ قال قلت: هي نفـس واحدة تُلقَى الساعـة فتذهب، فكنت أشـتهي أن يكون بعدد شعـري أنفس تُلقَى في النار في الله، فقال له الطاغيـة: هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلي عنك؟ فقال له عبدالله: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم، فقبَّل رأسه.

وقدم بالأسارى على عمر، فأخبره خبره، فقال عمر: حقٌ على كل مسلم أن يقبِّل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ فقبَّل رأسه.

وفى رواية أخرى ذكرها الذهبي من طريق الوليد بن مسلم قال حدثنا أبو عمرو ومالك بن أنس: أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة فأمر به ملكهم، فَجُرّب بأشياء صبر عليها، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثا لا يأكل، فاطَّلعوا عليه فقالوا للملك: قد انثنى عنقه فإن أخرجته وإلا مات، فأخرجه وقال: ما منعك أن تأكل وتشرب؟ قال: أما إن الضرورة كانت قد أحلتها، ولكن كرهت أن أشمتك بالإسلام[1].

وذكر هذا الخبر الحافظ ابن حجر في الإصابة من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع ونسبه للبيهقي ثم قال: وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهدًا من حديث ابن عباس موصولا[2].

ونجد في هذا الخبر حرص ملك الروم على أسر رجل من أصحاب النبى ﷺ ليتوصل بطريق الترغيب أو الترهيب إلى تحويله عن دين الإسلام، ولو حصل له ذلك لكان نصرًا له يعوض به بعض خسارة الروم الكبرى في حروبهم مع المسلمين، ولكان دافعا لرفع معنوية جيش الروم المنهارة.

وهكذا نجد أعداء الإسلام من قديم الزمن يرون أن ظفرهم بتحويل المسلمين عن دينهم يُعدُّ أعظم انتصار لهم.

ولئن فشلوا في حصولهم على ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم فلقد نجحوا بعد ذلك كثيرًا في هذا المجال.

فلما ظفر الروم بعبد الله بن حذافة جاؤوا يبشرون ملكهم بهذا الظفر على أساس أن ذلك أول مراحل الانتصار.

وبدأ ملك الروم مع ابن حذافة في مرحلة الفتنة بالترغيب فقال له: هل لك في أن تنصَّر وأعطيك نصف ملكي؟

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤.

(٢) الإصابة ٢/ ٢٨٨ رقم ٤٦٢٢.

وهذا عرض سخي كبير تُصغِي إليه النفوس المجبولة على حب المال والجاه، وقد صدر من رجل يملك التصرف، وتحت يده ممالك النصف الغربي من الأرض إلى رجل لا يملك من الدنيا إلا ما يبلِّغه إلى الآخرة، فماذا كان جواب ابن حذافة؟

لقد كان جوابَ الرجل الواثق بدينه الذي يؤمن بأن ما عند الله تعالى خير وأبقى حيث قال: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ملك العرب مارجعت عن دين محمد طرفة عين.

وهذا دليل على ما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من قوة الإيمان والثبات عند الشدائد، وهذا الموقف وأمثاله يصور لنا أنهم كانوا يُعدُّون الدين أغلى جوهر يملكونه، فهم لا يفرطون فيه ولا يبيعونه بأي ثمن.

وإنها لمساومة خاسرة يقوم بها ملك الروم لينزع بها كرامة المسلم وبهاءه في هذه الحياة الدنيا مقابل عَرَضٍ زائل، وهذا العَرْضُ وإن كان في نظر أبناء الدنيا سخيا فإنه في نظر أبناء الخلود شيء تافه حقير.

ولقد وُفِّق ابن حذافة حينما أجابه بتحقير دنياه التى يعتز بها ببيان أن مُلْك الدنيا لا يعادل الانخلاع من هذا الدين العظيم طرفة عين.

ويخرج ابن حذافة من فتنة الترغيب كالذهب الخالص، ويدخل في فتنة الترهيب حيث يقول له ملك الروم: إذًا أقتلك، قال: أنت وذاك، فأمر به فصُلب، وقال للرماة: ارموه قريبا من بدنه، وهو يعرض عليه ويأبى.

إنه يبيع نفسه رخيصة في سبيل الإبقاء على هذا الدين العظيم.

إن الإنسان حينما ينخلع من دين الإسلام يكون كائنًا حيا لا قيمة له في الحياة، لأنه يكون قد فقد كرامته الإنسانية، وإنما تكون الكرامة بهذا الجوهر النفيس الذي به يصل إلى الهدف الأعلى الذي خُلق من أجله، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في دار الخلود.

ويمعن ملك الروم في تخويفه حيث يُلقِي في القِدر الذي يغلي رجلا من المسلمين فإذا هو عظام تلوح كما جاء في بعض الروايات، ولكن ابن حذافة يمعن

في تبكيت ملك الروم والتـأكيـد على احتـقار هذه الـدنيا التي من أجلهـا يتنافس التـائهون عن الهـداية، ولقد تشكَّل هذا المـعنى السامي بصـورة قطرات من الدمع تَهْمِي من عيني ذلك الرجل العظيم.

ويظن ملك الروم وقومه -لفرط تعلقهم بالدنيا ومتاعها- أن تلك الدموع تحكِي نوعا من الانجذاب نحو حب البقـاء الذي سيكون ثمنا لخلع ذلك الجوهر السامي، وإذا بهم يفاجَؤون بما يذهلهم ويُذلُّهم.

إن ابن حذافة يبكي لأنه لا يملك إلا نفسًا واحدة يحوز بها أجر الشهيد عند الله تعالى، ومن أجل مـا رسخ في قلبه من تصـور ما أعده الله تعـالى للشهـداء فإنه يبكي على كونه لا يملك أنفسا بعدد شعره لينال الشهادة بهذا العدد الكبير.

وهنا شعـر ملك الروم بتحطُّم معـنويته وكبـريائه وقلة شأنه أمام هذا العـملاق الضخم، فأراد أن يسـتردَّ شيئًا من ذلك المجد الوهمي المحطَّم قـفال لابن حذافة: هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلِّي عنك؟

وما أن لامس مـسامع ابن حذافة نبـأ الفكاك من الأسر حتى تذكَّـر إخوانه من أسارى المسلمين حالاً فقال: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم، فقبّل رأسه.

إنه من جيل عظيم قـد بلغ آفاق السمو الأخـلاقي فهو لا يعيش لنفـسه، وإنما يعيش لإخوانه، فلذلك تذكَّرهم وشرط فكَّ أسرهم معه.

ولكن هل هذه القُبْلة تحمل معنى التعظيم والإجلال؟

لا، إنها جاءت عقب ذلك الانتـصار العظيم.. انتصار المبادئ الإلهيـة السامية التي يمثلها أزكى العناصر البـشرية على المبادئ الأرضية الواهية التي يمثـلها التائهون الغاوون.

إنها قبلة تحمل معنى مداراة أهل الباطل لاستخلاص حق المسلمين منهم من غير مداهنة تتضمن التفريط فيما يجب لله تعالى.

ولقد أكبر عمر رضي الله عنه هذا السلوك الرفيع من ابن حذافة فقال هذه المقالة العظيمة «حق على كل مسلم أن يقبَّل رأس ابن حذافة وأنا أبدأ» فقبَّل رأسه.

وهي إشادة عظيمة من رجل كبير القدر في نفوس المسلمين لعمل جليل يستحق كل عناية واهتمام.

وما حدث من أمير المؤمنين عمر يُعدُّ إقرارًا منه ومن علماء الصحابة رضي الله عنهم بما جرى من ابن حذافة من مداراة عظيم الروم أخيرا لاستنقاذ عدد من أسرى المسلمين مقابل ثمن زهيد يرضى به بعض غروره ذلك المتكبر.

وهو موقف لا يحمل أي معنى لِذِّلة بعدما سبقه من المظاهر العالية للتمسك بالإسلام وإظهار عزته وجلاله.

ونخلص إلى المشهد الآخر الذي صورته لنا إضافة الرواية الثانية حيث صبر ابن حذافة على الجوع والعطش ثلاثة أيام ولم يمد يده إلى ما حرمه الله تعالى عليه، رغم علمه بأن ذلك مباح للمضطر، كراهة أن يُدخل السرور على ملك الروم فيؤدى ذلك إلى شماتته بالإسلام.

ونصل من ذلك إلى استهانة أولئك الأفذاذ بأجسامهم في مقابل الحفاظ على المعاني النبيلة التي خلدها في أذهانهم الإسلام.

من مواقف عروة بن الزبير رحمه الله

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر هشام بن عروة بن الزبير قال: خرج أبي إلى الوليد بن عبدالملك فوقع في رجله الآكلة، فقال له الوليد: يا أبا عبدالله أرى لك قطعها، قال: فقطع وإنه لصائم فما تضوَّر وجهه.

قال: ودخل ابن له أكبر ولده إصطبل الدواب فرفستْه دابة فقتلته، فما سُمِع من أبي في ذلك شيء حتى قدم المدينة، فقال: اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وايمُ الله لئن أخذتَ لقد أبقيت، ولئن أبليتَ طالما عافيت.

وأخرجه أيضًا من عدة طرق، وقد جاء في إحداها أنه تمثل بأبيات معن بن أوس:

لعـمـرك مـا أهويت يومًـا لريبـة ولا حملَتْني نـحو فاحـشة رجلي
ولا قادني سـمعي ولا بصـري لها ولا دلَّني رأيي عليـهـا ولا عـقلي
وأَعلمُ أنْ لم تُصـبـني مـصـيـبـة من الدهر إلا قد أصابت فتًى قبلي[1]

وأخرج الحافظ ابن عـساكر هذا الخبر من عـدة طرق وجاء في رواية له: أنه لما وقعت الآكلة في رجله قيل له: ألا ندعو لك طبيبا؟ قال: إن شئتم، فجاء الطبيب فقال: أسقيك شرابا يزول فيه عقلك، فقال امض لشأنك ما ظننت أن خلقًا يشرب شرابا يزول فيه عقله حتى لا يعرف ربه.

وذكـر في رواية أنه أبي أن يشـرب المخـدر وأن الطبيب قـطع رجله من نصف ساقه، فما زاد على أن يقول: حَسّ، حس[2]، فقال الوليد: ما رأيت شيخا أصبر من هذا[3].

فهـذا مثل جليل في الإيمان القـوي الذي تمثل في الصبـر علي المكاره والرضى بقضاء الله تعالى وقدره، والمستوى العالي من الذكر القلبي وحضور القلب مع الله تعالى، حيث لم يقبل أن يفقـد عقله حتى عند الضرورة وفي ذلك الوقت القليل، وذلك كله ناتج من العلم الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره وما أعده لعباده الصابرين من الثواب الجزيل.

من مواقف إبراهيم بن إسحاق الحربي رحمه الله

من ذلك ما أخرجـه الخطيب البغدادي من حديث أبي الحسين بن سـمعون قال قال أحمد بن سلمان القطيعى: ضِقت إضـاقةً فمضيت إلى إبراهيم الحربي لأبثه ما أنا فيه، فقال لي: لا يَضِقْ صدركَ فإن الله من وراء المعونة، وإني ضِقتُ مرة حتى انتهى أمري في الإضـاقة إلى أن عدم عيالي قوتهم، فـقالت لي الزوجة: هب أني وإياك نصبر، فكيف نصنع بهـاتين الصبيتين؟ فهات شـيئا من كتبك حتى نـبيعه أو نرهنه، فَضَنَنْت بـذلك وقلت: اقترضي لهـما شيئـا وأنظريني بقيـة اليوم والليلة،

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٧٨ - ١٧٩.
(٢) كلمة حَسّ تعبير عن الإحساس بالألم.
(٣) تاريخ دمشق ٤٠/ ٢٦١ - ٢٦٢.

وكان لي بيت في دهليز داري فيه كتبي، فكنت أجلس فيه للنسخ وللنظر، فلما كان في تلك الليلة إذا داقٌ يدق الباب فقلت: من هذا؟ فقال: رجل من الجيران، فقلت: ادخل، فقال: أطفئ السراج حتى أدخل، فكببت على السراج شيئًا وقلت: ادخل، فدخل وترك إلى جانبي شيئًا وانصرف، فكشفت عن السراج ونظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام، وكاغد[1] فيه خمس مئة درهم، فدعوت الزوجة وقلت: أنبهي الصبيان حتي يأكلوا، ولما كان من الغد قضينا دينا كان علينا من تلك الدراهم، وكان وقت مجيء الحاج من خراسان، فجلست على بابي من غد تلك الليلة، وإذا جمَّال يقود جملين عليهما حِملان ورقا، فحط الجملين وقال: هذان الحملان أنفذهما لك رجل من أهل خراسان، فقلت: من هو؟ فقال: قد استحلفنى أن لا أقول من هو[2].

ففي هذا الخبر مثل عال في الصبر على البلاء والرِّضَى بمُرِّ القضاء وقوة الرجاء، وما ذاك إلا نتيجة للتربية القويمة التي كان يتلقاها أهل العلم منذ المراحل الأولى للطلب، والنية الخالصة التي كانت ترافق طلبهم للعلم، حيث كانوا يطلبونه للعمل به لا لمجرد التزود منه، وقد كان الإمام أبو إسحاق إبراهيم الحربي من الأئمة في هذا الشأن.

كما أن فيه مثلا من عناية الله تعالى بأوليائه المؤمنين، وذلك بتسخير عباده لقضاء حوائجهم، فحينما ادْلهمَّت الخطوب بهذا الإمام، وكان المخرج منها منحصرا ببيع شيء من كتبه أو رهنها لم تطب نفسه بذلك، وعلم الله جل وعلا بإخلاصه وصدق توجهه فيسَّر أمره وأزال عسره.

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

قال الحافظ أبو الفرج عبدالرحمن بن رجب رحمه الله تعالى: قال شيخنا أبو عبدالله ابن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، ونور ضريحه، يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. قال:

(١) الكاغد هو الورق.

(٢) تاريخ بغداد ٦/ ٣١ - ٣٢.

وقال لي مـرة: ما يصنع أعـدائى بي؟ أنا جنتي وبستـاني في صدري، أين رحت فهي مـعي، لا تفارقني، أنا حـبسي خلوة، وقـتلي شهادة، وإخـراجي من بلدي سياحة.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة -أو قـال: ما جزيتهم على ما تسـببوا لى فيه من الخـير - ونحو هذا.

وقال مـرة: المحبـوس من حبس قلبـه عن ربه، والمأسور من أسـره هواه. قال شيخنا: وعلم الله مـا رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ما كـان فيه من الحبس والتـهديد والإرجـاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عـيـشا، وأشـرحهم صـدرا، وأقواهم قلبـا، وأسرهم نفسا، تلوح نضـرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشـتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عبـاده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العـمل، فأتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها[1].

فهذا الـكلام المروى عن شيخ الإسلام أحمـد بن عبدالحليم بن عبـدالسلام ابن تيمية الذي يتـحدث به عن نفسه والذي يصفه به تلميـذه شمس الدين أبو عبدالله ابن القيم فـيه وصف بليغ لما كان يتـصف به ابن تيميـة من الإيمان الراسخ واليقين الصادق، والصبر على المكاره والرضا بقضاء الله وقدره، والزهد في الدنيا، فهو لا يبالى بما يدبره له أعداؤه، فالسـجن الذي يخشاه الناس عادة هو عنده خلوة بربه، فهو فرصة كبيرة لعـبادة الله جل وعلا، حيث العزلة وفراغ الفكر، أما القتل الذي يفزع الناس منه فهو عنـده شهادة، ولطالما تمنى الصالحون الاستشـهاد في سبيل الله تعالى، وأما نفـيه من بلده فهو عنده سياحـة، والسياحة مرغوب فـيها عند الناس عادة لما فيها من الترويح عن النفس واكتساب المعرفة والخبرات المتعددة.

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣.

وبهذا فـإن الأعداء لن يصلوا منه إلى شيء يسـوءه لأنهم لن يستطيـعوا تغيـير القناعات العلـمية والإيمانيـة التي قد اقتنع بهـا، فليس لهم حيلة للإسـاءة إليه في فكره ووجدانه، وإنما كل ما يستطيعون أن يصلوا إليـه هو الإساءة إليه في جسمه، وهذا لا يعـدُّ مـشكلة أمـام أهل الإيمـان الراسخ واليـقين الصـادق، لأن قـوة استحضارهم لعظمة الله تعالى وخـشيتهم منه ورجاءهم لثوابه تزيل كل الآثار التي تخلفهـا أنواع الأذى الجسماني، بحـيث تظل في دائرة الأمور المادية ولا تصل إلى التأثير الروحاني، بل إن الأمر بضد ذلك لدي أقوياء الإيمان، حيث تسعد نفوسهم بما يصل إليهم من الأذى لشعورهم اليقيـني بأن ذلك سيكون سببًا في بلوغ رضوان الله تعالى والدرجات العليا في الجنة.

توجيهات ومواقف
في
مجال الكرم

حيث إن المال هو عصب الحياة وقوامها، وقد جبلت النفوس على حبه والتمسك به، فإن بذله في سبيل الله تعالي دليل على قوة الدافع الذي دفع إلى مقاومة رغبات النفوس وأهوائها. . ألا وهو الإيمان بالله تعالي والرغبة فيما عنده من الجزاء.

مثل من كرم رسول الله ﷺ:

حيث إن رسول الله ﷺ هو إمام الأمة في مكارم الأخلاق فسنذكر مثالا لكرمه العظيم الذي كان من أهم عوامل استجابة الناس لدعوته، وذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة -يعني الفقر-.

وفي رواية له قال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[1].

وهكذا رأينا نتائج هذا الكرم العظيم حيث أسلم ذلك الرجل وذهب يدعو قومه إلى الإسلام، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من كرم رسول الله ﷺ.

إن السخاء بالدنيا مظهر من مظاهر التحرر من الشهوات التي يتنافس الناس عليها، وحينما يكون الإنسان كذلك فإنه يكون متميزًا وعظيمًا عند الناس، لأنه استطاع أن يخرج من إسار العاطفة والهوى، وبالتالي فإن النفوس تتشوق إلى معرفة المبدأ العظيم الذي كان وراء هذا السلوك العالي، ثم تسارع إلى الإيمان به.

وإذا كان بعض الناس ينقاد إلى الإسلام من أجل الدنيا في مثل هذه الحال فإنه لا يلبث إلا قليلا في الغالب حتى تزول الغشاوة عن عقله فيفهم حقيقة دعوة الإسلام، إذا فكر بعقله السليم المتجرد من اتباع الهوى والخضوع للضغوط الخارجية، فيدرك عظمة الإسلام ويدخل في صف أهل الإيمان كما جاء في قول أنس «فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها».

---

(١) صحيح مسلم، الفضائل رقم ٢٣١٢ (ص١٨٠٦).

إن أصحاب المبادئ الأرضية يستطيعون أن يجذبوا الناس بأموالهم، وقد فعلوا ذلك على مدار التاريخ، ولكن الناس يظلون مرتبطين بأموالهم، وقلما يقتنعون بشيء مما يدعونهم إليه، حتى إذا انقطع المورد المالي والآمال الدنيوية المرتقبة عادوا أعداء ألداء لمن كان استغفلهم فحاول إلقاءهم في المهالك مستغلا بذلك حاجتهم الدنيوية، أما دعاة الإسلام فإنما يتألفون الناس بالدنيا حتى تزول الغشاوة عن عقولهم فإذا أدركوا عظمة الإسلام آمنوا به حقا وبذلوا من أموالهم أضعاف ما بذل الدعاة في تأليفهم.

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين السلوكين: سلوك دعاة الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتأليف الناس وهدايتهم إلى الحق، وسلوك أعداء الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتضليل الناس عن الحق، وهدايتهم إلى الباطل، فكلهم دعاة، وكلهم يستخدمون هذه الوسيلة، ولكن شتان بين هدف هؤلاء وهدف هؤلاء.

من أخبار طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

لقد كان للصحابة رضي الله عنهم مواقف خالدة في البذل والعطاء وكرم النفوس والسخاء تدل على قوة إيمانهم بالله جل وعلا وتمثل الحياة الآخرة بوضوح في تفكيرهم وسلوكهم، وقد مرت بنا أمثلة لكرم بعضهم، وسأذكر بعض ما لم يتقدم ذكره في العرض التاريخي، ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من طريق موسى بن طلحة عن أبيه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه أتاه مال من حضرموت سبعُمائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: مالك؟ قال: تفكرت منذ الليلة، فقلت، ما ظنُّ رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت من بعض أخلاَّئك؟ فإذا أصبحت فادع بِجِفان وقِصَاع فقسِّمه، فقال لها رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصدِّيق، فلما أصبح دعا بجفان فقسمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي منها بجفنة، فقالت له زوجته - يعني زوجة طلحة-: أبا محمد! أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي، قالت: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم[1].

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٠.

الله أكبر! ما أعظم هذا التفكير، وما أبلغ هذه المشورة، وما أصدق هذا السلوك!!

إذا كان أهل الدنيا يتململون ويأخذ بهم التفكير المضني في كيفية تصريف المال في وجوه التجارة، لتتضخم الثروة وتحصل السعادة الوهمية بتزايد المال فإن طلحة ابن عبيد الله الذي سماه النبي ﷺ طلحة الفياض لجوده يتململ من تكاثر المال عنده خشية أن يحاسب عنه يوم القيامة، مع أنه لورعه وتقواه لا يكتسب إلا من حلال.

ونجد زوجته التقية البارة بنت الصديق رضي الله عنه تخرجه من حيرته وتململه بمشورة الخير والبر، فتذكره بأحبابه الذين هم بحاجة إلى هذا المال، ولقد أيقظت في نفسه دوافع الخير التي يملك منها رصيدا كبيرًا فأثنى عليها وعلى أبيها بالتوفيق، وسارع إلى تطبيق مشورتها المباركة.

وهكذا تكون الزوجة الصالحة أكبر عون لزوجها على فعل الخير، لأن المألوف من حياة الناس أن تحاول الزوجة منع زوجها من الإنفاق في سبيل الله تعالى، لتتوسع هي وذَوُوها بذلك المال، فإذا وُجدت الزوجة الصالحة التي تكسر هذا المألوف وتشير على زوجها بالإنفاق فإنها في غاية التوفيق والرشاد.

وإن الذي ينفق في يوم واحد سبعمائة ألف لا يُنتظر منه بإذن الله تعالى أن يكتسب ماله من طريق فيه شبهة، فضلا عن أن يكتسبه من طريق حرام.

ونجد طلحة رضي الله عنه يخلِّد لنا مثلا عاليا من أمثلة السخاء المبني على صلة الرحم، فقد جاء إليه أعرابي يسأله فتقرب إليه بِرَحم، فقال طلحة: إن هذه لرحم ما سألني بها أحد قبلك، إن لي أرضًا قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن، فأعطاه[1].

وما فعله طلحة في هذا الخبر لون من ألوان الكرم الرفيع، وإنما يدل إنفاق هذا المبلغ الكبير على براءة قلبه تماما من الشح والبخل والتعلق بالدنيا، وأنه كان يرى المال وسيلة إلى العمل الصالح، وإشاعة المعاني السامية، فهو رجل متجرد لعبادة الله تعالى، ومن أجل ذلك استعبد المال، ولم يستعبده المال.

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣١.

من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه:

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فأمثلة كرمه كثيرة مر ذكر شيء منها ومن أمثلة كرمه ما رُوي عن بشر بن بشير الأسلمي عن أبيه قال: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بمُدّ فقال رسول الله ﷺ: «**تبيعها بعين في الجنة، فقال: ليس لي يا رسول الله عين غيرها، لا أستطيع ذلك**»، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي مثل الذي جعلت له عينا في الجنة إن اشتريتها؟ قال: **نعم**، قال: **قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين**[1].

وهكذا نجد تنافس أفراد ذلك الجيل الراشد على فعل الخير والرغبة فيما عند الله تعالى من الثواب.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل من خبر عطاء بن فروخ مولى القرشيين: أن عثمان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضًا فأبطأ عليه، فلقيه فقال: ما منعك من قبض مالك؟ قال: إنك غبنتني فما ألقى من الناس أحدا إلا وهو يلومني، فقال: أو ذلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدخل الله الجنة رجلا كان سهلا مشتريا وبائعا، وقاضيا ومقتضيا**»[2].

فهذا مثل رفيع في السماحة في البيع والشراء، وهو يدل على ما جبل عليه عثمان رضي الله عنه من الكرم وعدم التعلق بالدنيا، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التي من أهمها الإيثار، ولا تستعبده الدنيا فتجعل منه أنانيا يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس.

من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر الأصبغ بن نباتة: أن رجلا جاء عليَّ ابن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فرفعتها إلى

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الراشدين/ ٤٧١).

(٢) مسند أحمد ١/ ٤١١ رقم ٤١٠.

الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدتُ الله وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال علي: اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذُلَّ السؤال في وجهك، فكتب: إني محتاج، فقال علي: عليَّ بِحُلَّة، فأُتِي بها، فأخذها الرجل فلبسها، ثم أنشأ يقول:

كسوتني حلة تبلَى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثَّنا حُلَلا

إن نلتَ حسن ثنائي نلتَ مكرمة ... ولست أبغي بما قد قلته بدلا

إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه ... كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا

لا تزهد الدهر في خير تواقعه ... فكل عبد سيُجْزَى بالذي عملا

فقال علي: عليَّ بالدنانير فأُتِيَ بمائة دينار فدفعها إليه، فقال الأصبغ: يا أمير المؤمنين، حلة ومائة دينار! قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **أنزلوا الناس منازلهم**، وهذه منزلة هذا الرجل عندي[1].

فهذا موقف جليل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الوقوف عند حاجات المحتاجين والاهتمام بأمورهم ورعاية مشاعرهم، وإن أروع ما في هذا الخبر قوله «اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك»، فكم يعاني المحتاجون من الذل بين يدي من يعرضون عليهم حوائجهم، وقد يتلعثمون فلا يستطيعون النطق، وتختلف مواقف المسؤولين تجاه مشاهد الذل في وجوه السائلين، فبعضهم يطرب لرؤيتها وتتعاظم لديه نفسه حينما يرى الناس يذلون بين يديه، وبعضهم يتألمون لرؤية هذه المشاهد ويودون معرفة حاجة السائل دون أن يتعرض للمذلة، فهؤلاء قد زكت نفوسهم وخلصت نياتهم، وآثروا رفع معنويات إخوانهم المحتاجين على التمتع برؤية انكسار نفوسهم وجرح مشاعرهم، فهؤلاء مربُّون قبل أن يكونوا منفقين، ومصلحون قبل أن يكونوا باذلين.

ولقد كانت مشاعر ذلك الرجل المحتاج عظيمة حينما واجهه أمير المؤمنين علي بهذه المعاملة السامية، ولقد صاغ هذه المشاعر بالأبيات المذكورة.

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٩.

ولقد زاده أمير المؤمنين مبلغا من المال حينما عرف من تلك الأبيات منزلته الاجتماعية، واستشهد بالحديث المذكور على سلوكه هذا، لأن ما يكون عظيما عند إنسان قد يكون هينًا عند إنسان آخر.

من أخبار أبي طلحة رضي الله عنه :

من ذلك ما جاء في خبر أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه الذي أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار مالاً بالمدينة من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه «بيْرُحَاء» وكانت مستقبلة المسجد، فكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس فلما نزلت هذه الآية: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: **بخ**[1]، **ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[2].

وفي هذا الحديث نجد مثالا واضحا لانتصار المؤمن الحق على رغبات نفسه وميلها نحو الدنيا، فحينما يصل إلى مسامع المسلم أن فعل الخير الذي ينال به رضى الله تعالى والسعادة الأخروية لا يكون إلا بالتنازل عن محبوبه من ماله لله تعالى، فإنه قد يسمو سريعًا إلى العلو فيتنازل عن ذلك، وقد لا يفكر في ذلك لغلبة الدنيا عليه، وقد يقع في شيء من الصراع النفسي نحو الصعود في درجات الإيمان أو البقاء على المستوى الذي وصل إليه، فإن حالفه التوفيق قطع ذلك الصراع بالسمو نحو الآفاق العالية، فتنازل عما يحب في الدنيا من أجل أن ينال ما يحب في الآخرة.

(١) بخ، كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء -النهاية في غريب الحديث-.

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة رقم ١٤٦١ (٣/ ٣٢٥). صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم ٩٩٨.

ومن أخبار أبي طلحة رضي الله عنه في الكرم والإيثار ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد[1]، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: **ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله!** فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصِّبْية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل -أو ضحك- من فلان وفلانة، وأنزل الله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩][2].

وقد جاء في رواية للإمام مسلم أن هذا الرجل هو أبو طلحة رضي الله عنه[3].

إن خلق الإيثار مبني على الكرم وسخاء النفوس، وإن الوصول إلى التخلق بهذا الخلق الكريم قد يحتاج إلى جهاد نفسي لمقاومة نزعات النفس المتعلقة بحب إمساك المال.

ولكن حينما يؤمن الإنسان بالله جل وعلا إيمانا حقا فإن جواذب الإيمان القوي ترفعه من الالتفات إلى الدنيا على أنها مقصد وغاية، وتقصره على اعتبار أنها بُلْغَة ووسيلة.

ولكنه في سبيل الوصول إلى هذا المستوى قد يحتاج إلى قدر كبير من جهاد النفس حتى يترك ما يحب فى العاجل من أجل ما ينتظر من المحبوب في الآجل، ثم لا يلبث كثيرا يتم تعديل السياق كالآتى: ثم لا يلبث كثيراً حتى يتقوى إيمانه فيجد في نفسه المتعة واللذة في إنفاق المال أضعاف ما يجده في إمساكه ثم نجده يشعر بالراحة والطمأنينة بل بالسعادة عندما يشعر بأنه فرج بماله عن معسر أو أنقذ بماله منكوبًا.

(١) الجهد: المشقة الناتجة عن الجوع.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، رقم ٤٨٨٩ (٨/ ٦٣١).

(٣) صحيح مسلم، الأشربة، رقم ٢٠٥٤ (ص ١٦٢٥).

من أخبار عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه:

أما أخبار عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه في البذل والسخاء فإنها كثيرة نُمثِّل لها بما أخرجه ابن المبارك عن الزهري قال: تصدق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، وحمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله وكان عامة ماله من التجارة[1].

من أخبار الزبير بن العوام رضي الله عنه :

أما الزبير بن العوام رضي الله عنه فقد رُوي عن عروة بن الزبير أنه قال: أوصى إلى الزبير سبعة من الصحابة منهم عثمان وابن مسعود وعبدالرحمن، فكان ينفق على الورثة من ماله ويحفظ أموالهم[2].

وهذا مثل رفيع من أمثلة الكرم والوفاء، وهو يجسِّم المعاني السامية في النفس حتى تبقى هي الماثلة في الضمير الحي، وتبعًا لذلك يُسخِّر هذا الضمير الحي كل ما يملك من أجل سيادة هذه المعاني.

وقد تجود النفس مرة ومرة ثم يعترضها شيء من الفتور، فأما أن يتكفَّل مثل هذا الشهم السخي بالنفقة على ورثة عدد من الصحابة ويحفظ لهم أموالهم فهو نموذج فريد في عالم الواقع، ومؤشر مهم من مؤشرات الرقي الأخلاقي لدى الصحابة رضي الله عنهم.

من أخبار عمرو بن العاص رضي الله عنه:

من ذلك ما رُوي عن علقمة بن رمثة أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين، فخرج رسول الله ﷺ في سرية وخرجنا معه، فنعس وقال: **يرحم الله عمرًا**، فتذاكرنا كل من اسمه عمرو.

قال: فنعس رسول الله ﷺ ثم قال: «**رحم الله عمرًا**» ثم نعس الثالثة فاستيقظ فقال: «**رحم الله عمرا**» قلنا يا رسول الله من عمرو هذا؟ قال: **عمرو بن العاص**، قلنا:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٨١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٥.

وما شأنه؟ قال: **كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها، فأقول: عمرو أَنَّى لك هذا؟ فقال: من عند الله، قال: وصدق عمرو إن عند الله خيرا كثيرا**[1].

وهكذا فاز عمرو بن العاص بدعاء النبى ﷺ لكونه من المسارعين إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى.

والإنفاق إذا كان كذلك فهو دليل على قوة إيمان صاحبه حيَث سخت نفسه بالمال الذي هو من أعز المحبوبات لدى الإنسان من أجل الله تعالى والدار الآخرة، فهو دليل على أنه يفضل الأجر الأخروى على الاحتفاظ بالمال، ومن ثَمَّ استحق رحمة الله عز وجل.

من أخبار عائشة رضي الله عنها:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: هلا أبقيت لنا درهما نشتري به لحما تفطري عليه! فقالت: لو ذكرتيني لفعلت[2].

فهذا من لطائف أخبار الكرم، فعائشة رضي الله عنها حينما ورد عليها ذلك المال لم يكن عندها شيء، ومع ذلك تصدقت به كله، فقد تصدقت بكل ما تملك من النقود، وقد ذكرت حاجات المحتاجين ونسيت حاجة بيتها، وهذا يدل على تخلقها بخلق الإيثار وبراءتها من الأنانية والأثرة، والذي يدفع لذلك السلوك القويم هو تضاؤل النظر إلى الدنيا وضخامة النظر إلى الآخرة.

إن الكرم خلق إسلامي رفيع، يدل على كثافة النظرة الروحانية، وضآلة النظرة المادية عند من تخلق بهذا الخلق السامي، فالكرماء هم عشاق المثل العليا، وإن أعلى المثل وأسمى القيم الطموح إلى نعيم الآخرة، ولقد كان هذا الهدف السامي دافعًا قويًا لأصحاب المعادن الزكية نحو الترفع عن قيود المادة، وتسخير المال للفعال الحميدة، وإشاعة الأخلاق الكريمة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٦٥.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٣٦ - ١٣٧.

من أخبار أبى هريرة رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكـره الحافظ ابن كثيـر من خبر أبي الزعـيزعة كاتب مـروان قال: بعث مروان إلى أبي هريرة بمائـة دينار، فلما كان الغد بـعث إليه: إني غلطت ولم أردك بها وإنما أردت غيرك، فقال أبو هريرة: قد أخرجتها فإذا خرج عطائى فخذها منه -وكان قد تصدق بها- وإنما أراد مروان اختباره[1].

وهكذا نجح أبو هـريرة عـبـدالرحـمن بن صـخـر الدوسـي رضي الله عنه في الاختـبار، وما كان بحـاجة إلى ذلك فإنه صـحابي جليل وإن رصيـده السابق من الإحسان والكرم يكفى فى مـعرفة حاله، وهل كان ينبغى لأحـد تلاميذ النبي ﷺ الملازمين له أن يكون إلا زاهدًا في الدنيا سباقا إلى الخيرات؟!

من أخبار عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما:

كان عـبدالله بـن عمرو بـن العاص رضي الله عنه من المنفـقين في سبـيل الله تعالى، ومن أمثلة ذلك ما رُوي عن سليـمان بن الربيع قال: انطلقت في رهط من نُسَّاك أهل البصـرة إلى مكة، فقلنا: لو نظرنا رجلاً من أصـحاب رسول الله ﷺ، فدُلِلْنا على عبدالله بن عمرو، فـأتينا منزله، فإذا قريب من ثلاثمائة راحلة، فقلنا: علَى كل هؤلاء حج عبدالله بن عـمرو؟ قالوا: نعم، هو ومواليه وأحـباؤه، قال: فانطلـقنا إلى البيت فـإذا نحن برجل أبيض الرأس واللحيـة، بين بردين قِطْرِيَّن، عليه عمامة وليس عليه قميص[2].

فهـذا دليل على كرم عبدالله بن عـمرو رضي الله عنهمـا، وحبِّه لفعل الخـير، حيث قام بنفقة هذا العدد الكبير من الحجاج.

والنفقة في هذا المجال لها مزية خاصة، وهي أنها تسهيل لأمر الحج، الذي هو الركن الخامس من أركان الإسـلام، فقد يوجد من لا يستطيع الحج لفـقره، فالذي يتحمل نفقات حج هؤلاء له أجر الصدقة، وأجر تيسير هذه العبادة العظيمة.

وفي الخبر دلالة على اهتمام طلاب العلم بزيارة العلماء والتعرف عليهم، وهذا المقصد من أهم فوائد الحج حيث يتم اللقـاء والتعارف والتعاون بين أهل العلم من سائر بلاد المسلمين.

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٩٣.

من أخبار عبدالله بن عمر رضي الله عنهما:

من أخبار اتصاف عبدالله بن عمر رضي الله عنهما بالكرم والإنفاق في سبيل الله تعالى ما رُوي عن عبدالله بن دينار قال: خرجت مع ابن عمر إلى مكة، فعرَّسنا[1] فانحدر علينا راعٍ من جبل، فقال له ابن عمر: أراعٍ؟ قال: نعم، قال: بعني شاة من الغنم، قال: إني مملوك، قال: قل لسيدك أكلها الذئب، قال فأين الله عز وجل؟ قال ابن عمر: فأين الله!! ثم بكى، ثم اشتراه بعد، فأعتقه.

وفي رواية ابن أبي رواد عن نافع «فأعتقه واشتري له الغنم»[2].

هذا الخبر يدلنا أولاً على اهتمام عبدالله بن عمر بمعرفة أهل التقوى، فقد قام باختبار ذلك الراعي ليعرف مدى ورعه وتقواه حيث طلب منه بيع تلك الشاة وأن يقول لسيده إن الذئب قد أكلها، فلما عرف ورعه وتقواه اشتراه من سيده واشترى معه الغنم ثم أعتقه ووهب له تلك الغنم.

وهذا مثال لكرم ابن عمر وبذله في سبيل الله تعالى حيث نال ذلك المملوُك الراعي حريته على يديه وأصبح له من تلك الغنم مال يعيش عليه.

من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما:

من ذلك ما رُوي عن القاسم بن الفضل الحُدَّاني قال: حدثنا أبو هارون قال: انطلقنا حجاجا فدخلنا المدينة، فدخلنا على الحسن -يعني ابن علي رضي الله عنهما- فحدثناه بمسيرنا وحالنا، فلما خرجنا بعث إلى كل رجل منا بأربعمائة، فرجعنا فأخبرناه بيسارنا، فقال: لا تردوا عليَّ معروفي، فلو كنت على غير هذه الحال كان هذا لكم يسيرا، أما إني مزوِّدكم: إن الله تعالى يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة[3].

فهذا الصحابي الجليل قد أعطى أولئك الحجاج ذلك المال مع ظهور يسارهم، فكيف الحال لو كانوا محتاجين، وحينما أظهروا له عدم حاجتهم لم يقبل منهم رد ذلك المال، وهذا دليل على قوة الدافع في نفسه نحو السخاء والجود.

ولم ينس أن يزودهم بما هو خير من ذلك حيث ذكَّرهم بفضل يوم عرفة الذي يباهي الله تعالى بعباده ملائكته عليهم السلام.

---

(١) أى نزلنا

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢١٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦١.

ومن ذلك ما رواه عبدالله بن عـبيد بن عمير قال قـال ابن عباس عن الحسن بن علي: ولقد قاسم الله مالَه ثلاث مرات، حتى إنه يعطي الخف ويمسك النعل[1].

وهذا مثال عـزيز في الكرم، حيث قسم الحسن بن علي رضي الله عنهـما ماله قسمين ثلاث مرات، فكان يتصدق بنصفه ماله، ولقد كان دقيقا في محاسبته نفسه وكأنه كان يؤدي واجبًا من الواجبات، حيث كان يعطي الخف ويمسك النعل مع أن أحدهما لا يغني عن الآخر، وإنه في عمله هذا قد جعل من نفسه قدوة للمسلمين في أعمال الخير والإحسان.

من أخبار حارثة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنه :

أخرج محمد بن سعد من خبر محمد بن عثمان عن أبيه: أن حارثة بن النعمان كان قد كُفَّ بصره فجعل خيطا في مصلاه إلى باب حجرته ووضع عنده مكتلا فيه تمر وغـير ذلك، فكان إذا سلم المسكين أخـذ من ذلك التمـر ثم أخذ على الخـيط حتى يأخذ إلـى باب الحجرة فيناوله المسكين، فكان أهله يقـولون: نحن نكفيك، فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن مناولة المسكين تقي ميتة السوء**»[2].

فهذا الصحابي الجليل كان عظيم الاهتمام بالصدقة ومراعاة المساكين، حيث كان يناولهم الصدقـة بنفسـه، وفي ذلك ما فيـه من النشوة والفرح في رؤية عـلامات السرور والغـبطة على وجوه الفـقراء، فلما كف بصـره لم يجعل ذلك عـائقا عن القيام بهذه المهمة الجليلة مكتفيًـا بسماع أصوات المساكين بالدعاء له الذي يرجو من ورائه الخاتمة السعيدة في الدنيا والظفر برضوان الله تعالى والسعادة في الجنة.

من أخبار معاذ بن الحارث رضي الله عنهما[3].

قال أبو الفـرج ابن الجوزي رحمـه الله تعالى: وعن عبـدالرحمن ابن أبي ليلى قال: كان ابن عـفراء لايدع شيئا إلا تصـدق به، لما وُلد له استشفـعت إليه امرأته

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٠.

(٢) طبقـات ابن سعد ٣/ ٤٨٨، وذكر الحـافظ ابن حجر أن هذا الخبـر رواه الطبراني والحسن بن سفـيان – الإصابة ١/ ٢٩٨ رقم ١٥٣٢.

(٣) هو معاذ بن الحارث بن رفـاعة بن الحارث الأنصاري شهد أبوه بيعـتي العقبة وبدرا، واشتهر معـاذ بنسبته إلى أمه عفراء.

بأخواله، فكلموه وقالوا له: إنك قد أعَلْـت فلو جمعت لولدك، قال: أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار.

فلما مـات ترك أرضًا إلى جانب أرض رجل، قـال عبدالرحمن -وعليـه ملاءة صـفراء مـا تساوي ثلاثة دراهم-: مـا يسـرني الأرض بملاءتي هذه، فامـتنع ولي الصبيان، فاحتاج إليها جار الأرض فباعها بثلاثمائة ألف[1].

فهذا مـعاذ بن الحارث رضي الله عنهمـا يتصدق بكل ما وقع تحـت يده ما عدا القوت الضروري، وهذا من أعلى أنواع الكـرم، وقد كان الدافع له إلى هذا الكرم النادر طلب مغفرة الذنوب والعتق من النار.

وهكذا يُخرج الإسلام رجالا يعيشون لمجتمعهم قبل أن يعيشوا لأنفسهم، لأنهم يعتقدون أن بذل المعروف والإحسـان للمسلمين يرفع من رصيدهم الأخروي، وهم إنما يعملون للآخرة، فإذا كان المال مطية للوصـول إلى السعادة الأخروية فما أهون بذله على نفس المؤمن التـقي!! وما أسعـد المجتمعـات البشرية بـالمؤمنين السابقين بالخيرات!!

ولما كان معـاذ بن عفراء قد وكل أمر أولاده إلى الله عـز وجل ولم يمسك ماله من أجلهم فإن الله تعالى قـد عوضهم من بعده بارتفاع قـيمة تلك الأرض التي لم تكن تساوي في حياته إلا القليل.

من أخبار سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما:

ومن الأجواد الكبار من الصحابة رضي الله عنهم سعد بن عبادة الأنصاري وابنُه قيس رضي الله عنهما.

فأما سعد فأخبار كرمه كـثيرة، ومنها أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كان يبعث إليه كل يوم جفنة من ثريد اللحم أو ثـريد بلبن أو غيره، فكانت جفنة سـعد تدور مع رسول الله ﷺ في بيـوت أزواجه[2]. وكان يـرجع كل ليلة إلى أهله بثمـانين من أهل الصفة يعشيهم[3].

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٧٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧١.
(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧٦.

وكان مناديه ينادي عـلى حصنه: من أراد الشحم واللحم فـليأت أطم ذُليم بن حارثة[1].

أما قيس بن سعد فقـد رُويت له أخبار رائعة في الجود، من ذلك أن امرأة أتت إليه فـقالت: أشكو إليك قلة الجـرذان، فقال: ما أحـسن هذه الكناية[2] ثم قال: املؤوا بيتها خبزًا ولحمًا وسمنًا وتمرًا.

ومن ذلك مـا روي عن هشام بن عـروة بن الزبير عن أبيـه قال: باع قـيس بن سعـد مالاً من معـاوية بتسعين ألفًـا، فأمر من نادى فـي المدينة: من أراد القرض فليأت، فأقرض أربعين ألفًا، وأجاز الباقي، وكتب على من أقرضه، فمرض مرضًا قلَّ عواده، فـقال لزوجتـه قُرَيَبـة أخت الصديق: لِمَ قلَّ عُوَّادي؟ قـالت: للدَّين، فـأرسل إلى كل رجل بصكه، وقال: اللـهم ارزقني مالا وفـعالاً، فـإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال[3].

ففـي هذين الخبـرين مثل من كـرم قيس رضي الله عنه وحـبه لقـضاء حـوائج المسلمين، كما أن فـي الخبر الأخير مـثلاً على حبه لبقـاء صلة الأخوة والمودة بينه وبين إخوانه المسلمين، فلما أنكر قلة عواده لما مـرض فزع من ذلك خشية أن يكون قد وقع منـه ما يخل بهذه الأخـوة، ولكن زوجتـه المؤمنة الواعيـة أختَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه نبـهته إلى سبب ذلك، حـيث يجد المقترضـون صعوبة في مواجهة مُقرضهم حتى يسددوا ديونهم، فلمـا تنبه لذلك، أعفاهم جميعًا من تلك الديون، ليقضي على سبب حال بينه وبين زيارة إخوانه إياه.

من أخبار عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما:

ومن الكرماء المشهورين بالجود والإنفـاق عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، ومن أخباره في الكرم ما رُوي عن العـمري أن ابن جعفر أسلف الزبير ألف ألف، فلمـا توفي الزبير قال ابن الـزبير لابن جعـفر: إني وجـدت في كتب

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧٩، والأُطُم الحصن.
(٢) يعني حيث كَنَّتْ عن انعدام الطعام في بيتها بقلة الجرذان فيه.
(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٦ - ١٠٧.

الزبير أن له عليك ألف ألف، قال: هو صادق، ثم لقيه بعد، فقال يا أبا جعفر وهِمْتُ، المال لك عليه، فقال: فهو له، قال: لا أريد ذلك[1].

وهذا مثال للسخاء النادر، فحينما أخبر ابن الزبير عبد الله بن جعفر بأن عليه للزبير ألف ألف صدَّقه مع أنه يعلم أن الأمر خلافُ ذلك، ثم حينما صحَّح له ابن الزبير الأمر وأخبره بأنها له على الزبير تنازل عنها.

إن النفوس قد تسخو بالشيء المعتاد الذي لا يلفت النظر، ولكن السخاء بهذا المبلغ الكبير، والاستعداد قبل ذلك بالوفاء بدين كبير لا أصل له دليل على قوة الإيمان عند هذا الصحابي الجليل وأصالة معدنه.

ومن أمثلة سخائه العالي ما رُوي عن الأصمعي أن امرأة أتت بدجاجة مسموطة، فقالت لابن جعفر: بأبي أنت، هذه الدجاجة كانت مثل بنتي، فآلَيْتُ أن لا أدفنها إلا في أكرم موضع أقدر عليه، ولا والله ما في الأرض أكرم من بطنك، قال: خذوها منها، واحملوا عليها، فذكر أنواعًا من العطاء، حتى قالت: بأبي أنت، إن الله لا يحب المسرفين[2].

فهذه الكلمات بليغة من تلك المرأة استجاشت بها كرم ابن جعفر الفياض، فأصبح يعطيها من غير حساب، حتى فدته بأبيها، وطلبت منه وقف ذلك العطاء حتى لا يكون من المسرفين.

ومن أمثلة كرمه المتعلق بجبر أهل المصائب ما رُوي عن ابن سيرين أن رجلاً جلب سكَّرًا إلى المدينة فكسد، فبلغ عبد الله بنَ جعفر فأمر قهرمانه[3] أن يشتريه، وأن يُنْهِبَه الناس[4][5].

فهذا الخبر بيان لما كان يقوم به عبد الله بن جعفر من مواساة أهل النوائب، فكم هي فرحة صاحب السكر حينما اشترى منه بضاعته الكاسدة!

ومن ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي قال: قال أحمد بن جعفر بن سلم: حدثنا شيخ لنا، قال: قيل لإبراهيم الحربي: هل كَسَبْتَ بالعلم شيئًا؟ قال: كَسَبْتُ به

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦١.
(٣) يعني القائم على أمواله.
(٤) يعني أن يدعه للناس يأخذونه.
(٥) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦١.

نصفَ فَلْسٍ: كانت أمي تُجـري عليَّ كلَّ يوم رغيفين، وقطيعةً فـيها نصف دانق، فخـرجتُ في يوم ذي طين، وأجمع رأيي على أن آكل شيـئًا حُلوًا، فلم أر شيـئًا أرخص من الدّبس، فأتيتُ بقَّالاً، فدفعتُ إليه القُطَيْعـة، فإذا فيها قيراط إلا نصف فلس، وتذاكرنا حديث السـخاء والكرم، فقال البقـال: يا أبا إسحاق! أنت تكتب الأخبار والحـديث، حدثنا في السخاء بحديث، قلتُ: نعم. حـدثني أبو بكر عبد الله بن الزبير، حدثنا أبي، عن شيخ له، قال: خرج عبد الله بن جعفر إلى ضياعه ينظر إليها، فإذا في حائط[1] لنسيب له عبد أسود، بيـده رغيفٌ وهو يأكل لقمةً، ويطرحُ لكلب لقمـةً، فلمَّا رأى ذلك استـحْسنَه، فقال: يا أسـود لمن أنت؟ قال: لمصعب بن الزبير. قال: وهذه الضيعة لمن؟ قال: له. قال: لقد رأيت منك عجبًا، تأكلُ لقمة، وتطـرحُ للكلب لقمةً! قال: إني لأستـحيي من عين تنظرُ إليَّ أن أوثر نفسي عليـها. قال: فـرَجع إلى المدينة، فاشترى الـضيعة والعـبد، ثم رجع، وإذا بالعبد، فقال يا أسود: إني قد اشتريتك من مُصعب. فوثب قائمًا، وقال: جعلنى الله عليك ميمون الطلعة. قال: وإني اشتـريت هذه الضيعة، فقال: أكمل الله لك خيرها، قال: وإني أُشهد الله أنك حُـرٌّ لوجه الله، قال: أحسن الله جزاءَك. قال: وأشهد الله أن الـضيعة مني هديةٌ لك. قـال: جزاك الله بالحسنى. ثم قال الـعبد: فأُشهـد الله وأشهدك أن هذه الضيـعة وقفٌ مني على الفقراء، فـرجع وهو يقول: العبد أكرم منا[2].

فهذا الخبر يحتوي على مواقف:

الموقف الأول: في عفة الإمام الرباني إبراهيم الحربي وورِعـه، فهذا الخبر شاهد براءة له بتعففه عن كسب الدنيا بعلمه، وهكذا كان أكثر علماء الإسلام في عصوره الأولى حيث كانوا ينفرون من اتخاذ العلم الديني وسيلة إلى الدنيا، ويحتقرون من فعل ذلك، ويرون أن ذلك يتنافى مع ابتـغاء الأجر الأخروي، كـما يرون أن ذلك يؤثر على بركة العلم، فيَضعُف التحصيل، ويَقِلُّ الانتفاع بالعلم.

الموقف الثاني: في براعة الإمـام الحربي العلمـية، وذلك في سرعـة استحـضار النصوص المناسبة، وحسن اختياره، حيث اختار هذا الخبر المؤثر.

(١) أي بستان.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٣ - ٣٦٤.

الموقف الثالث: فيما تحلى به ذلك الغلام المملوك من خلق الرحمة، حيث شاطر الكلب زاده، واستحيى من الكلب أن يراه بعينه وهو يأكل أكثر منه، ولقد كان ذلك الغلام في غاية الرقة في الإحساس، واللطف في المشاعر، وإذا كان شعوره قد بلغ من الرقة إلى حد الحياء من حيوان أعجم لا يعقل فكيف بشعوره نحو الإنسان؟! ثم كيف بشعوره نحو إخوانه المسلمين؟

الموقف الرابع: في تأثر الإمام العَلَم، في السماحة والكرم، عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب، بهذا الموقف المدهش الذي شاهده، حث سارع إلى شراء ذلك الغلام، وشراء البستان الذي يعمل فيه، ثم أعتقه لوجه الله تعالى، وأهدى إليه ذلك البستان، وهذا سلوك في غاية السمو والنبل، حيث أسدى هذه المكافأة الكبيرة لذلك الغلام، الذي ارتفع بعقله وإحساسه إلى آفاق بعيدة من المثل العالية، والأخلاق النبيلة.

الموقف الخامس: فيما قام به ذلك الغلام بعد نيله الحرية من التصدق بذلك البستان على الفقراء مع أنه لا يملك غيره، وهو أول مال يملكه.

ومن هذا الموقف والموقف السابق لهذا الغلام ندرك الهدف العالي الذي كان وراء ذلك الخلق النبيل الذي حمل الغلام على مراعاة مشاعر ذلك الكلب، وكأنه أمام إنسان يملك العقل والمشاعر.. إن هذا الهدف العالي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، فلقد كان هذا الهدف مهيمنًا على فكره ومشاعره، فما أن ملك ذلك البستان حتى جعله صدقة على فقراء المسلمين.

وإن هذه الأخلاق العالية التي صدرت من هذا الغلام تدل على عظمة الإسلام، فإن هذا الغلام قبل أن يسلم لم يكن له شأن يذكر ولم يرتفع مستواه الخلقي إلى حد المساواة بينه وبين حيوانٍ في المعيشة، والتصدق بكل ما يملك على الفقراء، ذلك لأنه في حال كفره ينظر إلى دنياه فقط، فتتضخم في عينه نفسه، وتبرز فيه الأنانية، ولا يشعر بمشاعر الآخرين، فلما أن أسلم صار ينظر إلى آخرته فبرز فيه خلق الإيثار وغيره من مكارم الأخلاق التي تتطلبها الرفعة في الحياة الآخرة.

وموقف أخير للسيد الكبير عبد الله بن جعفر حيث اعترف لأهل الفضل بالفضل فقال: العبد أكرم منا، مع أن كل ما جرى من ذلك الغلام إنما كان نتيجة للكرم الفياض لهذا السيد.

من أخبار حكيم بن حزام رضي الله عنه:

هذا ومن الأجواد الكرماء المشهورين بالسخاء الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله عنه، ومن أخبار جوده ماروُي عن شعبة بن الحجاج قال: لما توفي الزبير لقي حكيمٌ عبد الله بن الزبير فقال: كم ترك أخي من الدين؟ قال: ألف ألف، قال: عليَّ خمسمائة ألف[1].

ومن أخبار بذله في سبيل الله ما رُوي عن مصعب بن ثابت أنه قال: بلغني والله أن حكيم بن حزام حضر يوم عرفة، ومعه مائة رقبة[2] ومائة بدنة، ومائة بقرة، ومائة شاة، فقال: الكل لله[3].

وكذلك ما رُوي من أنه باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف، فقال له ابن الزبير: بعتَ مكرمة قريش، فقال: ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى، إني اشتريت بها داراً في الجنة، أُشهدكم أني قد جعلتها لله[4].

فهذه أخبار تدل على الزهد في الدنيا والكرم البالغ.

وقول حكيم «ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى» تنبُّهٌ دقيق إلى مقياس الكرامة في الإسلام حيث يرتفع المسلم بالتقوى، لا بالمال ولا بالشرف المبنيِّ على الأعراف والعادات البشرية.

وكون حكيم حمل عن الزبير نصف دَينه وهو خمسمائة ألف، دليل على استعباده المال، وصرفه في وجوه المعروف التي ترفع ذكره عند الله تعالى وعند الناس، وعدم استعباد المال إياه.

من أخبار سعيد بن العاص رحمه الله:

ومن الكرماء المشهورين سعيد بن العاص الأموي الذي اشتهر بالجود والسخاء، فمن أمثلة جوده ما رُوي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: خطب سعيد بن

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٠ .
(٢) يعني من المماليك ليعتقهم.
(٣) ، (٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٠ .

العاص أم كلثوم بنت عليّ بعد عمر[1]، وبعث إليها بمائة ألف، فدخل عليها أخوها الحسين وقال: لاتَزَوَّجيه، فقال الحسن: أنا أزوجه، واتَّعدوا لذلك، فحضروا، فقال سعيد: وأين أبو عبد الله؟ فقال الحسن: سأكفيك، قال: فلعل أبا عبد الله كره هذا، قال: نعم، قال: لا أدخل في شيء يكرهه، ورجع ولم يأخذ من المال شيئًا[2].

فهذا الخبر مثل من التواضع والسماحة وعدم الانتصار للنفس، فحينما علم سعيد بن العاص بأن الحسين يرفض تزويجه لم يتخذ منه موقفًا معاديًا، بل ترك ذلك الزواج الذي أغضب الحسين.

ومع ذلك فإنه لم يسترجع المهر الذي دفعه مع ضخامته، وهذا لون من ألوان الكرم الرفيع الذي تُبنى به الأمجاد عادة ويرفع به الذكر.

وقال عنه الحافظ ابن كثير: كان من سادات المسلمين والأجواد المشهورين، وقال: كان حسن السيرة جيد السريرة، وكان كثيرًا ما يجمع أصحابه كل جمعة فيطعمهم ويكسوهم الحُلَل، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبِرّ الكثير، وكان يَصُرُّ الصُّرر فيضعها بين يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد.

قال: وروينا أنه استسقى يومًا في بعض طرق المدينة فأخرج له رجل من دار ماء فشرب، ثم بعد حين رأى ذلك يعرض داره للبيع فسأل عنه: لم يبيع داره؟ فقالوا: عليه دين أربعة آلاف دينار، فبعث إلى غريمة فقال: هي لك علي، وأرسل إلى صاحب الدار فقال: استمتع بدارك.

قال: وكان رجل من القراء الذين يجالسونه قد افتقر وأصابته فاقة شديدة فقالت له امرأته: إن أميرنا هذا يوصف بكرم فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشيء! فقال: ويحك لا تحلقي وجهي، فألَحَّت عليه في ذلك فجاء فجلس إليه، فلما انصرف الناس مكث الرجل جالسًا في مكانه، فقال له سعيد: أظن جلوسك لحاجة؟

---

(١) يعني أن عمر رضي الله عنه كان قد تزوجها وتوفي عنها وليست هذه الخطبة بعد وفاته وإنما هي بعد وفاة أبيها علي رضي الله عنه بزَمن.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

فسكت الرجل، فقال سعيد لغلمانه: انصرفوا، ثم قال له سعيد: لم يبق غيري وغيرك، فسكت، فأطفأ المصباح ثم قال: رحمك الله لست ترى وجهي فاذكر حاجتك، فقال: أصلح الله الأمير أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت، فقال: إذا اصبحت فالْقَ وكيلي فلانا، فلما أصبح الرجل لقي الوكيل فقال له الوكيل: إن الأمير قد أمر لك بشيء فأْتِ بمن يحمله معك، فقال: ما عندي من يحمله، ثم انصرف الرجل إلى امرأته فلامها وقال: حملتيني على بذل وجهي للأمير، فقد أمر لي بشيء يحتاج إلى من يحمله، وما أراه أمر لي إلا بدقيق أو طعام، ولو كان مالاً لما احتاج إلى من يحمله ولأعطانيه، فقالت المرأة: فمهما أعطاك فإنه يقوتنا فخذه، فرجع الرجل إلى الوكيل فقال له الوكيل: إني أخبرت الأمير أنه ليس لك أحد يحمله، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك، فذهب الرجل فلما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فقال للغلمان: ضعوا ما معكم وانصرفوا، فقالوا: إن الأمير قد أطلقنا لك، فإنه ما بعث مع خادم هدية إلى أحد إلا كان الخادم الذي يحملها من جملتها قال: فحسن حال ذلك الرجل.

قال: وقال ابن معين وعبد الأعلى بن حماد: سأل أعرابي سعيد بن العاص فأمر له بخمسمائة، فقال الخادم: خمسمائة درهم أو دينار؟ فقال: إنما أمرتك بخمسمائة درهم، وإذ قد جاش في نفسك أنها دنانير فادفع إليه خمسمائة دينار، فلما قبضها الأعرابي جلس يبكي، فقال له: مالك؟ ألم تقبض نوالك؟ قال: بلى والله، ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك.

قال: وقال عبد الحميد بن جعفر: جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقيل له: عليك بالحسن بن علي، أو عبد الله بن جعفر، أو سعيد بن العاص، أو عبد الله بن عباس، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه، فقال: من هذا؟ فقيل: سعيد بن العاص، فقصده فذكر له ما أقدمه، فتركه حتى انصرف من المسجد إلى المنزل فقال للأعرابي: ائت بمن يحمل معك، فقال: رحمك الله إنما سألتك مالاً لا تمرًا، فقال: أعرف، ائت بمن يحمل معك! فأعطاه أربعين ألفًا فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره[1].

(١) البداية والنهاية ٨/ ٨٣-٨٦ .

فهذه أمثلة عالية في الكرم يقدمها أبو عثمان سعيد بن العاص الأموي رحمه الله تعالى، وهي تدل على سمو نفسه نحو معالي الأمور، حيث سخر ماله لخدمة إخوانه المسلمين وقضى به حوائجهم، وإنه لما يلفت النظر خبره مع ذلك القارئ الذي أصابته الحاجة فمنعه الحياء من ذكر حاجته فكان من أبي عثمان موقف نبيل حيث أطفأ المصباح حتى لا يرى ذلك المحتاج وجهه وهو يعرض حاجته، وهكذا تسمو بالكرام نفوسهم حيث يهيئون الظروف التي تُبقي العزة في نفوس المحتاجين ولاتعرضهم لذل المسألة، وهذا يدل على التخلق بخلق الإيثار والبعد عن الأثرة والأنانية.

وفي خبره مع الأعرابي لون من ألوان الكرم حيث غيَّر نيته من الدراهم إلى الدنانير لمجرد أن الخادم ظن أنه أراد الدنانير، فهو في هذا لا يريد أن يكون أقل مما يظن الناس فيه، وفي بكاء الأعرابي مثل من أثر الكرماء في حياة الناس.

وقال الحافظ ابن كثير: ولما حضرت سعيد الوفاة جمع بنيه وقال: لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم، واكفوهم مؤنة الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه مخافة أن يُردَّ، فو الله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعًا لحاجته أعظم منة عليكم مما تعطونه، ثم أوصاهم بوصايا كثيرة، منها أن يوفوا ما عليه من الدين والوعود، وأن لا يزوجوا أخواتهم إلا من الأكفاء، وأن يسوِّدوا أكبرهم، فتكفل بذلك كله ابنه عمرو بن سعيد الأشدق، فلما مات دفنه بالبقيع، ثم ركب عمرو إلى معاوية فعزاه فيه واسترجع معاوية وحزن عليه وقال: هل ترك من دين عليه؟ قال: نعم، قال: وكم هو؟ قال: ثلاثمائة ألف درهم، فقال معاوية: هي علي، فقال ابنه: يا أمير المؤمنين إنه أوصاني أن لا أقضي دينه إلا من ثمن أراضيه، فاشترى منه معاوية أراضي بمبلغ الدين، وسأل منه عمرو أن يحملها إلى المدينة، فحملها له ثم شرع عمرو يقضي ما على أبيه من الدين حتى لم يبق أحد، فكان من جملة من طالبه شاب معه رقعة من أديم فيها عشرون ألفًا، فقال له عمرو: كيف استحققت هذه على أبي؟ فقال الشاب: إنه كان يومًا يمشي وحده فأحببت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله، فقال: ابغني رقعة من أدم، فذهبت

إلى الجزارين فـأتيته بهـذه فكتب لي فيهـا هذا المبلغ واعتذر بـأنه ليس عنده اليوم شيء، فدفع إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئًا كثيرًا(١).

وهكذا ظل أبو عثمـان سعيد بن العـاص رحمه الله تعالى على كرمـه الفياض حتى وهو يوصي أولاده حينمـا حضرته الوفاة، حيث أوصاهم بأن يسـتمروا على صلة الناس الذين كان يصلهم، ولقد بلغ القمـة في تمثيل الكرم حينما بين لأولاده بأن صاحب الحاجـة الذي يراهم أهلا لقضاء حاجـته أعظم منة عليهم بهـذه الثقة منهم عليـه بالعطية، وفي هذا المعنى يـقول أيضًا في وصـية ابنه: يا بـني أجر الله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غـير مسألة، فأمـا إذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه في وجهه، أو جاءك مخاطرًا لا يدري أتعطيـه أم تمنعه فو الله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته(٢).

ولقد قام ابنه عمـرو المعروف بالأشدق بتنفيذ هذه الوصية خيـر قيام، كما يدل على ذلك خبره مع ذلك الشاب الذي حمل وعدًا من أبيه.

فلله در أبي عثمان ما أجمل سيرته في حياته، وما أروع وصيته عند مماته!!

من أخبار عبيد الله بن عباس رحمه الله:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر أبي الحجاج محمد بن الوليد الفزاري أن عبيد الله بن العبَّاس خـرج في سفر له ومعه مولـى له، حتى إذا كان في بعض الطريق وقع لهما بيت أعرابي، قال: فقال لمولاه: لو أنا مضينا فنزلنا بهذا البيت وبتنا به، قال: فمضى وكان عبيد الله رجلاً جمـيلاً، جهيرًا، فلما رآه الأعرابي أعظمه وقال لامرأته: لقـد نزل بنا رجل شريف، وأنزله الأعرابي، ثم إن الأعـرابي أتى امراته فقال: هل من عشـاء لضيفنا هذا؟ فقالت: لا، إلا هذه الشُّويهـة التي حياة ابنتك من لبنها، قال: لا بد من ذبحها، قالـت: أفتقتل ابنتك، قال: وإنْ، قال: ثم إنه أخذ الشاة والشفرة وجعل يقول:

يا جـــارتي لا توقظـي البُنَيّـــة ... إن توقظيـــهـــا تنتـــحب عليّـــه

وتنـزع الشـــــفـــــرة مـن يديـه

(١) البداية والنهاية ٨/ ٨٧ .
(٢) البداية والنهاية ٨/ ٨٦ .

ثم ذبح الشاة فهيّأ منها طعامًا، ثم أتى به عبيد الله ومولاه فعشّاهما، وعبيد الله يسمع كلام الأعرابي لامرأته ومحاورتهما.

فلما أصبح عبيد الله قال لمولاه: هل معك شيء؟ قال: نعم خمسمائة دينار فَضُلت من نفقتنا، قال: ادفعها إلى الأعرابي، قال: سبحان الله أتعطيه خمسمائة دينار وإنّما ذبح لك شاة ثمن خمسة دراهم، قال: ويحك، والله لهو أسخى منا وأجود، إنّما أعطيناه بعض ما نملك، وجاد علينا وآثرنا على مهجة نفسه وولده.

قال: فبلغ معاوية، فقال: لله در عبيد الله من أي بيضة خرج، ومن أي عش درج[1].

وأمام هذا الخبر العجيب فإن المتأمل له لا يدري أيعجب من ذلك الأعرابي الذي ذبح شويهته الوحيدة التي منها حليب ابنته إكرامًا لضيفه؟!

أم يعجب من عبيد الله بن عباس حينما أعطى الأعرابي ذلك العطاء الجزيل؟!

إنها مكارم خلدها التاريخ، وذهب ذلك المال الذي لو صرف في وجهة خاصة أو كُنِز لما كان له ذكر ولا خبر، وأعظم من ذلك ما سيترتب على إنفاقه من النعيم المقيم الخالد يوم القيامة، مع النية الخالصة في طلب رضوان الله جل وعلا والجنة.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر علي بن المنذر بن فرقد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عبيد الله بن عباس يسمى تيار الفرات، وكان عبد الله بن عباس يسمى حكيم المعضلات، قال: فكان عبيد الله يطعم كل يوم، ينحر غدوة حتى قدموا المدينة، قال: فقال له أبوه العباس: يابني مالك تغدِّى ولا تُعشِّي، إذا غديت فَعَشِّ، فقال عبيد الله لغلام له يقال له «بند»: يا بند انحر غدوة وانحر عشية[2].

وأخرج الحافظ ابن عساكر أيضًا في أخبار عبيد الله بن عباس من خبر عبيد الله ابن محمد العائشي قال: قدمَتْ امرأة إلى البصرة في سنة شهباء ومعها ابنان لها، فلم يأت عليها الحول حتى دفنتهما، فقعدت بين قبريهما فقالت:

(١) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٨٣ - ٤٨٤، وانظر البداية والنهاية ٨/ ٩٠.
(٢) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٨١.

فللـه عـيناي اللتـان تراهمـا قـريـبين مني والمـزار بعـيـد
همـا تركا عـينيَّ لا مـاء فيـهمـا وشكًّا سـواد القلب فـهو عـميـد
مـقيـمـان بالبيـداء لا يبـرحانهـا ولا يسـألان الـركب أين يـريد

فقيل لها: لو أتيت عبيد الله بن عباس فقصصت عليه القصة، فأتته فقالت له: يا ابن عم رسـول الله ﷺ إني أصبحت لاعند قـريب يحمـيني، ولا عند عشـيرة تؤويني، وإني سـألت عن المُرَجَّى سببـه المأمول نائـله، المعطَى سائله، فـأُرشدت إليك، فاعـمل بي واحدة من ثلاث: إمـا أن تقيم أَوَدي[1]، أو تحسن صلتي، أو تردني إلى أهلي، فقال عبيد الله: كلٌّ يُفعل بك[2].

وأخبار عبـيد الله بن العباس رحمه الله ورضي عن أبيـه في الكرم كثيرة، وهي تدل على أن هذا الخلق النبيل فيـه طبع وسجية، فهو لا يتـرك البذل والسخاء وإن لاحت له بوادر الإقلال والحاجة.

من أخبار عرابة الأوسي رحمه الله[3]:

وقال الحافظ ابن كثير: وقال الهيثم بن عدي: اختلف ثلاثة عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم، فـقال أحدهم: عبـد الله بن جعفـر، وقال الآخر: قيس بن سـعد، وقال الآخر: عُرابة الأوسي، فتماروا في ذلك حـتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة، فقال لهم رجل: فليذهب كل رجل منكم إلى صاحبه الذي يزعم أنه أكرم من غيره فلينظر ما يعطيـه وليحكم على العيـان، فذهب صاحب عـبد الله بن جعفـر إليه، فوجده قد وضع رجله في الغرز ليذهب إلى ضيعة له، فقال له: يا ابن عم رسول الله ابنُ سبيل ومنقَطع به، قال: فأخـرج رجله من الغرز وقال: ضع رجلك واستو عليها، وخذ ما في الحقيبـة، ولا تُخدعنَّ عن السيف فإنه من سيوف علي، فرجع إلى أصحـابه بناقة عظيمـة، وإذا في الحقـيبة أربعـة آلاف دينار، ومطارف من خز وغير ذلك، وأجلُّ ذلك سيف علي بن أبي طالب.

---

(١) الأوَد العوج والمقصود أن تجبر كسري.

(٢) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٨٣ .

(٣) هو عرابة بن أوس بن قيظي الأوسي الأنصاري.

ومضى صاحب قيس بن سعد فوجده نائمًا، فقالت له الجارية ما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، قالت: فحاجتك أيسر من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس مال غيره اليوم، واذهب إلى مولانا في معاطن الإبل فخذ لك ناقة وعبدًا، واذهب راشدًا، فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها شكرًا لها على صنيعها ذلك، وقال: هلا أيقظتني حتى أعطيه ما يكفيه أبدًا، فلعل الذي أعطيتيه لا يقع منه موقع حاجته.

وذهب صاحب عرابة الأوسي إليه فوجده وقد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يتوكأ على عبدين له -وكان قد كف بصره- فقال له: يا عرابة، فقال: قل، فقال: ابن سبيل ومنقطع به، قال: فخلَّى عن العبدين ثم صفق بيده باليمنى على اليسرى، ثم قال: أوّه أوّه، والله ما أصبحت ولا أمسيت وقد تركَتِ الحقوق من مال عرابة شيئًا، ولكن خذ هذين العبدين، قال: ما كنت لأفعل، فقال: إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت فأعتق وإن شئت فخذ، وأقبل يلتمس الحائط بيده، قال: فأخذهما وجاء بهما إلى صاحبيه.

قال: فحكم الناس على أن جعفر قد جاد بمال عظيم، وأن ذلك ليس بمستنكر له، إلا أن السيف أجلُّها، وأن قيسًا أحد الأجواد، حكَّم مملوكته في ماله بغير علمه واستحسن فعلها وعتقها شكرًا لها على ما فعلت، وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسي لأنه جاد بجميع ما يملكه، وذلك جهد من مُقلّ[1].

وبعد: فهذا الخبر من أحسن الأخبار في مواقف الأجواد الكرماء، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة قد جاد بخير كثير.

وقد اتفق المحكَّمون على أن عرابة الأوسي كان أكرم الثلاثة، مع أنه أقل منهم صدقة، إلا أنه قد تصدق بماله كله، وذلك جهد المقل، وهو أفضل الصدقة كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: **جهد المقل وابدأ بمن تعول**»[2].

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٣١٢ رقم ١٦٧٧ .

من أخبار علي بن الحسين رحمه الله:

أخرج الإمام أحمد من خبر شيبة بن نعامة قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يُبَخَّل، فلما مات وجدوه يعول مائة أهل بيت بالمدينة.

وأخرج من خبر أبي حمزة ثابت الثمالي: أن علي بن الحسين كان يحمل الجراب فيه الخبز، ويقول: إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل.

وأخرج من خبر محمد بن إسحاق قال: كان ناس من أهل المدينة يعيشون، ما يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين رحمه الله فقدوا ما كانوا يُؤتَون به بالليل[1].

فهذه أخبار جليلة عن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في مجال الكرم الذي قد ازدان بالإخلاص لله تعالى، وذلك بإخفاء الصدقة، وإخفاء الصدقة أفضل من إعلانها لما جاء في قول رسول الله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[2].

وذلك في غير الحالات الخاصة التي يستحب فيها إعلان الصدقة مثل ما إذا أصابت المسلمين جوائح وأراد الإنسان بإظهار الصدقة أن يكون قدوة لغيره أو فيما إذا دعا الإمام للصدقة بشكل معلن.

ولقد كان رحمه الله تعالى يحمل الطعام إلى الفقراء في الليل بنفسه حتى يحافظ على إخفاء الصدقة، وقد نجح في إخفائها حيث لم يكن يعلم الفقراء بأنه هو الذي يمونهم حتى توفى.

ولئن كان قد فات ابنَ الحسين ما كان يعمل له بعض الناس في الدنيا من جاه وسمعة فلقد ظفر بجاه الآخرة وسمعتها، وشتان ما بين الدارين.

من أخبار الليث بن سعد رحمه الله:

ومن مواقف الكرم ما ذكره الحافظ ابن كثير عن الإمام الليث بن سعد الفهمي أنه استهداه الإمام مالك شيئًا من العصفر لأجل جهاز ابنته، فبعث إليه بثلاثين حملا، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسمائة دينار وبقيت عنده منه بقية.

(١) الزهد / ١٦٦ .

(٢) صحيح البخاري، رقم ١٤٢٣ (٣/ ٢٩٢).

قال: وحج مرة فأهدى إليه مالك طبقًا فيه رطب، فرد الطبق وفيه ألف دينار.

قال: وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار وما يقارب ذلك[1].

فهذه أخبار عالية في السخاء تدل على عظمة هذا الإمام وتقدمه في مجالات البذل والمعروف والإحسان، وما أجمل المال الصالح للرجل الصالح الذي يقول به هكذا وهكذا حتى يفنيه في طاعة الله تعالى واكتساب الدرجات العلى في الجنة!

من أخبار ابن شهاب الزهري رحمه الله:

ومن المشهورين بالسخاء الإمام محمد بن شهاب الزهري، ومن أخبار كرمه ما رُوي عن الإمام الشافعي قال: عتَب رجاء بن حيوة على الزهري في الإسراف، وكان يستدين، فقال: لا آمن أن يَحبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك فتكون قد حُمِلت على أمانيك، قال: فوعده الزهري أن يقْصُر، فمرَّ به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل، فوقف به رجاء وقال: يا أبا بكر ما هذا بالذي فارقنا عليه، فقال الزهري: انزل فإن السخِيَّ لا تؤدِّبه التجارب[2].

وذلك لأن الكرم فيه خلق أصيل، فهو يشعر بمتعة كبيرة إذا أحسن إلى الناس وبذل لهم من ماله، كما يشعر بانقباض في النفس إذا غيَّر عادته في ذلك، هذا بالنسبة لهواية النفس، فإذا أضيف إلى ذلك اعتبار ذلك من العمل الصالح الذي سيتقاضى عليه فاعله الأجر في الآخرة أضعافًا مضاعفة فإن فاعل ذلك يندفع بحماس ونشاط من غير أن ينظر لما سيترتب عليه إنفاقه في الدنيا، وإذا كان التاجر يغامر برأس ماله أحيانًا رجاء الربح المحتمل في الدنيا فإن المنفق في سبيل الله تعالى يتاجر بماله رجاء ربح محقق في الآخرة.

من أخبار عبد الله بن المبارك رحمه الله:

ومن أخبار السخاء وبذل المعروف ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك المروزي، قال ابن كثير في ترجمته: وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه: من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٧١.

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٧.

أنا أنفق عليه، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب، وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضوا حجتهم يقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها، فإذا جاؤوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأُصلحت وبُيِّضت أبوابها، ورُمِّم شعثها، فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم، ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصُّرر، ثم يُقْسِم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل، وكانت سُفرته تُحمل على بعير وحدها وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد[1].

وبعد: فهذا نموذج عال للكرم والإحسان وبذل المعروف، جمع فيه ابن المبارك بين بذل ماله الكثير في النفقة على الحجاج وبذل نفسه في خدمتهم وقضاء حوائجهم، فيسعد الذي يحج معه لأنه يُكفَى همَّ إعداد النفقة وتأمين اللوازم الخاصة في السفر وشراء الهدايا، ثم إذا عاد إلى بيته يجده مجدَّدًا مزيَّنًا بعده، إلى جانب ما هو أهم من ذلك وهو الاستفادة من علمه وعبادته وزهده وورعه وأخلاقه.

وبهذه الأخلاق العالية من ابن المبارك وبما تَحلَّى به من العلم النافع وتعليم الأمة والتربية والجهاد ساد مجتمعًا كبيرًا في زمنه، وكان الناس يستقبلونه ويسيرون معه في حشود كبيرة في أي بلد حلَّ فيه.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير أيضًا عن كرم الإمام عبد الله بن المبارك قال: وسأله مرة سائل فأعطاه درهمًا، فقال له بعض أصحابه: إن هؤلاء يأكلون الشِّواء والفالوذج وقد كان يكفيه قطعة، فقال: والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز، فأما إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فإنه لا يكفيه درهم، ثم أمر بعض غلمانه فقال: رُدَّه وادفع إليه عشرة دراهم[2].

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٤ - ١٨٥ .
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٥ .

وفي هذا يتبين الفرق الكبير بين فهم ابن المبارك وفهم الذين حاوروه في شأن ذلك السائل، فقد كانوا يرون أن الدرهم كثير عليه لأنه ليس بحاجة، حيث إنه من قوم يأكلون أطايب الطعام، بينما فهم ابن المبارك أنه مادام كذلك فإن الدرهم لن يملأ عينه فأعطاه عشرة دراهم، وهكذا تكون أذهان الكرماء لَمَّاحة لمعالي الأمور، سبَّاقة إلى اكتساب مودة الناس.

ومن أخباره في الإحسان ما ذكره القاضي ابن أبي يَعْلَى من خبر علي بن المديني قال: كان عبد الله بن المبارك يتَّجر في البَزِّ ويقول: لولا خمسةٌ ما اتَّجرت: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفُضَيل بن عياض، ومحمد بن السَّمَّاك، وابن عُلَيَّة، وكان يخرج يتَّجر إلى خراسان فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج والباقي يصل به إخوانه الخمسة[1].

فهذه تضحية جليلة وكرم فياض من الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى، حيث كان يبذل من وقته في التجارة من أجل أن يصل إخوانه من العلماء.

ولقد كان في ذلك مثالاً عاليًا للزهد حيث يملك المال ولا يبقي منه إلا نفقته الضرورية وينفق بقيته على أولئك العلماء.

من أخبار أبي النجم الكردي رحمه الله:

ومن أخبار الأسخياء ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الأمير بدر ابن حسنَوَيه أبي النجم الكردي أمير بلاد الدينور وهمذان قال: وكان يصرف كل جمعة عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى.. وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذائين لأجل المنقطعين من همذان وبغداد، يصلحون الأحذية ونعال دوابهم، ويصرف في كل سنة مائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجاورين، وعمارة المصانع، وإصلاح المياه في طريق الحجاز وحفر الآبار، وما اجتاز في طريقه وأسفاره بماء إلا بني عنده قرية، وعَمَّر في أيامه من المساجد والخانات ما ينيف على ألفي مسجد وخان[2].

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٠٠.

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٨.

من أخبار الإمام الأوزاعي رحمه الله:

من أخبار الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي في الكرم والإحسان إلى المسلمين ما ذكره الحافظ ابن كثير عنه قال: قالوا: وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له في بيت المال على الخلفاء إقطاع صار إليه من بني أمية، وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحوٌ من سبعين ألف دينار، فلم يمسك منها شيئًا ولا اقتنى شيئًا من عقار ولا غيره، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه بل كان ينفق ذلك كلَّه في سبيل الله وفي الفقراء والمساكين[1].

فهذا الوصف المذكور للإمام الأوزاعي يدل علي زهده فى الدنيا وسخائه المتواصل بالمال طيلة عمره، فهو لم يدخر من ذلك المال الكثير شيئًا ولم يُشَيِّد به قصورًا أو يهلكه في ترف أو مظاهر دنيوية، وإنما كان ينفقه في وجوه الخير، ولقد كان راجح العقل صائب التفكير حينما ادخر تجارته للآخرة، وما أبعد الفرق بين عائدات الدنيا وعائدات الآخرة!!

من أخبار أمير المؤمنين المهدي رحمه الله[2]:

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من أخبار الكرم النادرة، وذلك فيما جرى لأمير المؤمنين المهدي في ضيافته عند أحد الأعراب.

قال ابن كثير: وقدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول: هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ، أين الرجل الذي يقال له الربيع الحاجب؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة، وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فإذا هو قطعة أديم[3] فيها كتابة ضعيفة، والأعرابي يزعم أن هذا هو خط الخليفة، فتبسم المهدي وقال: صدق الأعرابي هذا خطي، إني خرجت يومًا إلى الصيد فضِعْت عن الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعويذ رسول الله ﷺ، فَرُفِع لي نار من بعيد فقصدتها، فإذا هذا الشيخ وامرأته في خباء يوقدان نارا، فسلمت عليهما فردا السلام، وفرش لي كساء وسقاني مذقة

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٢٠.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس.

(٣) أي من جلد.

من لبن[1] مشوب بالماء فما شربت شيئًا إلا وهي أطيب منه، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أني نمت أحلى منها، فقام إلى شويهة له فذبحها، فسمعت امرأته تقول له: عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها، هلَّكتَ نفسك وعيالك، فما التفت إليها، واستيقظتُ فاشتويت من لحم تلك الشويهة وقلت له: أعندك شيء أكتب لك فيه كتابا؟ فأتاني بهذه القطعة فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف وإنما أردت خمسين ألفا، والله لأنفِّذنَّها له كلَّها ولو لم يكن في بيت المال سواها، فأمر له بخمسمائة ألف فقبضها الأعرابي، واستمر مقيمًا في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار، فجعل يَقْرِي الضيف ومن مر به من الناس، فعُرِف منزله بمنزل مُضيف أمير المؤمنين المهدي[2].

ففي هذا الخبر مثلان من السخاء، قدَّم أحدهما ذلك الأعرابي الذي ذبح شاته لضيفه وهو لا يملك غيرها، وحينما ملك ذلك المال الكثير بعد ذلك لم يبق يثمِّر ذلك المال ويتاجر به وإنما رجع إلى خبائه ذلك على طريق الحجاج فصار يبذل من ذلك المال في إكرام الضيوف، وذلك لأن الكرم كان فيه سجية، فما أن ملك ذلك المال حتى صرفه فيما يُرضي طموحه في هذا الجانب.

والمثل الثاني فيما قدَّمه أمير المؤمنين المهدي لذلك الأعرابي من تلك المكافأة السخية التي فجَّرت فيه ينابيع الكرم ودفعته إلى الاستمرار في بذل المعروف والإحسان وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

من أخبار الإمام البخاري رحمه الله:

ممن اشتهروا بالكرم الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ومن أخباره ما ذكره محمد بن أبي حاتم قال: وكان أبو عبدالله يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد، وكان لا يفارقه كيسه، ورأيته ناوَلَ رجلاً مرارًا صرة فيها ثلاثمائة درهم، وذلك أن الرجل أخبرني بعدد ما كان فيها من بَعْد، فأراد أن يدعو، فقال أبو عبدالله: ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحد[3].

(١) المذقة اللبن الممزوج بالماء.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٥٨ - ١٥٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٠.

فهذا مثل على كـرم أبي عبدالله البخاري ورغبتـه في تقديم العمل الصالح عن طريق الإنفـاق، ومن إخلاصه لله تعـالى أنه كان يحـرص على إخفـاء صدقـته، وبذلك يكون قد طبق علمه رجاء أن يكون من السبعة الذين يظلهم الله تعالى تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

ومن ذلك ما رواه محـمد بن أبي حاتم عن سخـاء الإمام محمد بن إسـماعيل البخاري، قال: كانت له قطعة أرض يكريهـا كل سنة بسبعمائة درهم، فكان ذلك المكتري ربما حمل إلى أبي عبدالله قثاة أو قثاتين، لأن أبا عبدالله كان معجبًا بالقثاء النضيج، وكـان يؤثره على البطيخ أحيانا، فكان يهـب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القثاء إليه أحيانا[1].

ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن كاتب الإمام البـخاري محمد بن أبي حاتم قال: وكـنت اشتـريت منزلا بتسـعمـائة وعشـرين درهما فـقال لي -يعنـي الإمام البخاري- لِيْ إليك حاجة تقضيها؟ قلتُ: نعم، ونعْمَى عين، قال: ينبغي أن تصير إلى نوح بن أبي شداد الـصيرفي، وتأخـذ منه ألف درهم، وتحمله إليَّ، فـفعلت، فقـال لي: خذه إليك، فاصرفـه في ثمن المنزل، فقلتُ: قد قـبلته منك وشكرته. وأقبلنا على الكتابة، وكنا في تصنيف «الجامع» فلما كان بعد ساعة، قلت: عَرَضت لي حاجة لا أجترئ رفعها إليك، فظن أني طمعت في الزيادة، فقال: لاتحتشمني، وأخبرني بما تحـتاج، فإني أخافُ أن أكـون مأخوذا بسببك، قـلت له: كيف؟ قال: لأن النبي ﷺ آخى بين أصحابه. فذكر حديث سـعد وعبدالرحمن. فقلتُ له: قد جعلتُك في حل من جـميع ما تقول، ووهبت لك المال الذي عرضـته عليَّ، عَنَيْتُ المُناصـفةَ. وذلك أنه قـال: لي جَـوَارٍ وامرأةٌ، وأنت عَـزَبٌ فـالذي يجبُ عليَّ أن أناصفك لنستـوي في المال وغيره، وأربح عليك في ذلك، فقـلت له: قد فعلتَ -رحمك الله- أكـثر من ذلك إذ أنزلتني من نفسك مـا لم تنزل أحدا، وحللتُ منك محلَّ الولد، ثم حفظ عليَّ حديثي الأول وقال: ما حاجتك؟ قلت: تقضيها؟ قال: نعم، وأسرُّ بذلك. قلت: هذه الألـف، تأمر بقبوله، واصـرفه في بعض ماتحـتاج إليه، فقبله، وذلك أنه ضمن لي قضاء حاجتي.

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٩.

ثم جلسنا بعد ذلك بيومين لتصنيف «الجامع»، وكتبنا منه ذلك اليوم شيئًا كثيرا إلى الظهر، ثم صلينا الظهر، وأقبلنا على الكتابة من غير أن نكون أكلنا شيئًا، فرآني لما كان قُرب العصر شبه القلق المستوحش، فتوهَّم فيَّ ملالا. وإنما كان بي الحصر غير أني لم أكن أقدر على القيام، وكنت أتلوَّى اهتماما بالحصر. فدخل أبو عبدالله المنزل، وأخرج إلي كاغدة فيها ثلاث مئة درهم، وقال: أما إذا لم تقبل ثمن المنزل، فينبغي أن تصرف هذا في بعض حوائجك فجهدني، فلم أقبل

ثم كان بعد أيام، كتبنا إلى الظهر أيضًا، فناولني عشرين درهما، فقال: ينبغي أن تصرف هذه في شراء الخضر ونحو ذلك، فاشتريت بها ما كنت أعلم أنه يلائمه، وبعثت به إليه وأتيت، فقال لي: بيَّض الله وجهك، ليس فيك حيلة فلا ينبغي لنا أن نُعَنِّي أنفسنا، فقلت له: إنك قد جمعت خير الدنيا والآخرة، فأي رجل يبر خادمه بمثل ما تبرني، إن كنتُ لا أعرف هذا فلست أعرف أكثر منه[1].

وبعد: فهذا خبر نفيس يدل على بلوغ الإمام البخاري وتلميذه محمد بن أبي حاتم درجات عليا في مكارم الأخلاق، فالإمام البخاري يسخو بالمال لتلميذه بما يزيد على قيمة بيت اشتراه، وتلميذه يحتال فى رد ذلك المبلغ بعدما شكر أبا عبدالله وأظهر قبوله إياه.

ثم يحاول أبو عبدالله أن يعطي تلميذه مرة أخرى مبلغا أقل لعله يرضى بقبوله، ولكن تلميذه يأبي ويشعره بأن ما هو فيه من خدمته في مجال العلم أعظم عنده من الدنيا بما فيها. فلله در هذا الإمام ما أوسع كرمه وأبلغ إحسانه.

وحينما أعطاه مبلغا من المال ليشتري شيئًا من الخضرة اشترى به ما يلائم رغبة شيخه، فلله در هذا التلميذ البار، ما أعظم أدبه، وما أسمى أخلاقه!!

من أخبار الإمام الشافعي رحمه الله:

ومن ذلك ما رُوي عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي من أخبار الكرم وسماحة النفس، فمن ذلك ما ذكره عمرو بن سواد قال: كان الشافعي أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام، فقال لي الشافعي: أَفْلَسْتُ في دهري ثلاثة

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢.

إفـلاسات، فكنت أبيع قلـيلي وكثـيري، حـتى حليّ بنتي وزوجـتي، ولم أرهن قط[1].

يعني أنه أفلس من كثرة إنفـاقه على الفقراء لأنه كان من الزهاد، وكانـت نفقته على نفسه قليلة.

وقال الربيع: كـان الشافعي مارًا بالحـذَّائين فسقط سـوطه فوثب غلام ومسـحه بكمه وناوله، فأعطاه سبعة دنانير[2].

وهذا التصرف من هذا الغلام دليل على أدبه وسمو تربيته فهو لم يكتف بمناولة الإمام الشافعي عصاه بل مسح العـصا بكمه، وإن المجتمع الذي يربي صغاره على احترام الكبار وتوقيرهم، وخاصة أهل العلم منهم يكون مجتمعًا راقيًا صالحا.

وما كافأه به الإمام الشافعي من ذلك المبلغ الكبيـر يُعدُّ حثًا بالغا على فعل الخير وخدمة المسلمين، وكم هي فرحة ذلك الغـلام بحصوله على ذلك المبلغ! وكم كان أثر ذلك فيه وفيمن حوله في الاندفاع نحو بذل المعروف والإحسان إلى المسلمين!

وقال الربيع: تـزوجت فسألني الشـافعي: كم أصـدقتهـا قلت: ثلاثين دينارا، عجَّلت منها ستة، فأعطاني أربعة وعشرين دينارا[3].

وحكى الربيع: أن إنسانًا ناول الشافـعي رقعة يقول فيهـا: إنني بقال رأس مالي درهم، وقـد تزوجت فأعنِّي، فـقـال يا ربيع أعطه ثلاثين دينارًا واعـذُرْني عنده، فـقلت: أصلحك الله إن هذا يكفـيـه عـشرة دراهم، فـقـال: ويحك ومـا يصنع بثلاثين؟ أفي كذا أم في كذا؟ -يَعُدُّ ما يصنع في جهازه -أَعْطِه[4].

وهذا نوع رفيع من الإحسان والمواساة، فكم هي فرحة من أقدم على زواج وقد ضاقت به المسالك حـينما يوفق بمن يعطيه المهر كله! وأعظم مـن ذلك حينما يوفق بمن يعطيه أكثر من تكاليف المهر كما هو الحال في ذلك البقال.

وروى الزبير بن سليمان القرشي عن الشافـعي قال: خرج هرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين هارون وقال: أمر لك بخمسة آلاف دينار.

---

(١)، (٢)، (٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٨.

قال [يعني الزبير]: فحُمل إليه المال، فدعا بحجام فأخذ شعره فأعطاه خمسين دينارا، ثم أخذ رقَاعًا فصرَّ صُررًا وفرقها في القرشيين الذين هم بالحضرة ومن بمكة، حتى ما رجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينار[1].

وقال الربيع: أخبرني الحميدي قال: قدم الشافعي صنعاء فضُرِبت له خيمة ومعه عشرة آلاف دينار، فجاء قوم فسألوه، فما قُلِعت الخيمة ومعه منها شيء[2].

فهذه نماذج عالية في الكرم يقدمها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، إلى جانب ما قدم للأمة من علم غزير وفهم ثاقب، والكرم من الأخلاق السامية التي تبين معادن الرجال، وهو مع الإخلاص دليل على قوة الإيمان، لأن بذل المال - وهو من أعلى المحبوبات من أجل الله تعالى - شاهد على قوة الإيمان.

من أخبار أبى عبدالله الواقدي رحمه الله:

من ذلك ما أخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي من خبر القاضي أبي عبدالله محمد بن عمر الواقدي قال: أضقت مرة من المرار وأنا مع يحيى بن خالد البرمكي، وحضر عيد فجاءتني جارية فقالت: قد حضر العيد وليس عندنا من النفقة شيء، فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرَّفته حاجتي إلى القرض، فأخرج إليَّ كيسا مختوما، فيه ألف ومائتا درهم، فأخذته وانصرفت إلى منزلي، فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشمي فشكى إلي تأخر غلته وحاجته إلى القرض، فدخلت إلى زوجتي فأخبرتها فقالت: على أيِّ شيء عزمت؟ قلت: على أن أقاسمه الكيس، قالت ما صنعت شيئا، أتيت رجلا سوقة فأعطاك ألفا ومائتي درهم، وجاءك رجل له من رسول الله ﷺ رحم ماسة تعطيه نصف ما أعطاك السوقة! ما هذا شيئا، أعطه الكيس كله، فدفعته إليه، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي فسأله القرض فأخرج الهاشمي إليه الكيس، فلما رأى خاتمه عرفه، وانصرف إليَّ فخبَّرني الأمر، وجاءني رسول يحيى بن خالد يقول: إنما تأخر رسولي عنك لشغلي بحاجات أمير المؤمنين، فركبت إليه فأخبرته بخبر الكيس، فقال: يا غلام هات تلك الدنانير، فجاءه بعشرة آلاف دينار فقال: خذ

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٨.

ألفي دينار لك، وألفين لصديقك، وألفين للهاشمي، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم[1].

فهذه قصة عجيبة ظهرت فيها نماذج عالية من الكرم الفياض، تردد فيها الكرم بين التاجر الذي بذل المال للواقدي مع حاجته إليه، والمرأة التي أبت أن يكون التاجر أكرم من زوجها، والواقدي الذي بذل ذلك المال لمقترضه مع حاجته إليه، ولقد كانت نتيجة ذلك الكرم المتبادل أن حصل كل واحد من هؤلاء الكرماء على مكافأة سخية من يحيى البرمكي وزير أمير المؤمنين هارون الرشيد.

ولقد كان أبو عبدالله الواقدي من الكرماء المشهورين، يقول عن نفسه: صار إليَّ من السلطان ستمائة ألف درهم ما وجبت عليّ فيها الزكاة،ويقول عنه عباس الدوري: مات الواقدي وهو على القضاء وليس له كفن فبعث المأمون بأكفانه[2].

من أخبار ابن مهدي رحمه الله:

ومن أسخياء العلماء المشهورين الإمام القدوة أحمد بن مهدي، قال أبو نعيم الحافظ: كان صاحب ضِياعٍ وثروة أنفق على أهل العلم ثلاثمائة ألف درهم[3].

وهكذا يسخو هذا العالم الجليل بهذا المبلغ الكبير على أهل العلم، والمال عادة من مطالب الإنسان، ولكن حينما تسمو الأهداف وتعلو المقاصد فإن الحب ينبل عن المألوفات ويرتفع عما تعارف الناس عليه عادة، ليصل بصاحبه إلى خدمة الأهداف السامية بما يملكه من مال، فيتحول المال إلى خادم مخلص دؤوب نحو الوصول إلى تحقيق أهداف صاحبه. فالمال أداة طيِّعة يستخدمها الكبار في تحقيق المآرب الكبيرة والمكارم العالية، في الوقت الذي يتحول في أيدي الصغار إلى معبود أصم، يدفع عابديه نحو المهالك، ويحشرهم نحو الرذائل.

من أخبار سوار صاحب المهدي رحمه الله:

ومن أخبار السخاء والوفاء ما ذكره الحافظ ابن كثير قال: وعن سوار -صاحب رحبة سوار- قال: انصرفت يومًا من عند المهدي فجئت منزلي فوُضِع لي الغداء

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٩ - ٢٠.
(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٢٠.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٩٧-٥٩٨.

فلم تُقبل نفسي عليه، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم، فاستدعيت بعض حظاياي لأتلهى بها فلم تنبسط نفسي إليها، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم فقلت: من أين هذه؟ فقال: من مُلكك الجديد، فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات، فنزلت لأصلي فيه، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال: إن لي إليك حاجة، فقلت: وما حاجتك؟ فقال: إني رجل ضرير ولكني لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة فأحببت أن أفضي إليك بحاجتي، فقلت: وما هي؟ فقال: إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئًا أتبلغ به لعلِّي أجتمع بسوار فإنه كان صاحبًا لأبي، فلعله أن يكون عنده سعة يجود منها علي، فقلت: ومن أبوك؟ فذكر رجلا كان أصحب الناس إليّ، فقلت: إني أنا سوار صاحبُ أبيك، وقد منعني الله يومَك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك وأجلسنى بين يديك، وأمرت وكيلي فدفع له الألْفَي الدرهم التي معه، وقلت له: إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا، وركبت فجئت دار الخلافة وقلت: ما أُتحف المهدي الليلة في السمر بأغرب من هذا.

فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جدا وأمر لذلك الأعمى بألفى دينار[1].

فهذه حادثة عجيبة فيها مثل من حكمة الله تعالى العالية في تدبير أمور خلقه، حيث تجتمع الأسباب الموصلة إلى مقاصدها من غير أن يكون لِمَنْ جرت على يديه أحيانًا أي قصد في ذلك، فهذا الغني المحسن اجتمعت له تلك الأسباب التي أخرجته من بيته في ساعة ما كان يخرج فيها ليلقاه ذلك الأعمى الفقير فيعرض عليه حاجته، ويشاء الله تعالى أن يوافي ذلك المحسنَ أحدُ عماله بشيء من المال ليكون طعمة عاجلة لذلك الفقير.

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٥٩.

وموقف في السخاء والوفاء وبذل المعروف من سوار صاحب أمير المؤمنين المهدي رفع الله به حال ذلك الأعمى الفقير وسدَّ حاجته.

من أخبار إبراهيم بن أدهم التميمي رحمه الله:

ومن أمثلة السخاء ما ذكره الحافظ ابن كثير عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى حيث قال: وذكروا أنه -يعني ابن أدهم- حصد مرة بعشرين دينارًا فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤوسهم ويحجمهم فكأنه تبرم بهم واشتغل بغيرهم، فتأذى صاحبه من ذلك، ثم أقبل عليهم الحجام فقال: ماذا تريدون؟ قال إبراهيم: أريد أن تحلق رأسي وتحجمني، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين دينارا وقال: أردت أن لا تحتقر بعدها فقيرًا أبدا.

قال وقال مضاء بن عيسى: ما فاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا بصلاة ولكن بالصدق والسخاء[1].

فهذا غيض من فيض مما كان يتصف به إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى من السخاء، وقد استخدم كرمه في هذه الحادثة لغرض دعوي، حيث رأى ذلك الحجام يحتقر الفقراء فأعطاه ذلك المبلغ الكبير ليُعلمه بأن هناك من الأغنياء من يَظهرون بمظهر الفقراء زهدًا في مظاهر الحياة الدنيا حتى لا يحتقر الفقراء بعد ذلك.

من أخبار بقيّ بن مخلد رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ بَقِّي بن مخلد الأندلسي قال قال ابن لبابة الحافظ: كان بقي من عقلاء الناس وأفاضلهم، وكان أسلمُ بن عبد العزيز يقدمه على جميع من لقيه بالمشرق ويصف زهده ويقول: ربما كنت أمشي معه في أزقة قرطبة فإذا نظر فى موضع خال إلى ضعيف محتاج أعطاء أحد ثوبيه[2].

فهذا مثل من زهد الإمام بقي بن مخلد وكرمه، وكونُه يتصدق بثوب، ليس كبيرا، ولكن حينما يكون ذلك الثوب أحد ثوبيه اللذين يلبسهما وهو بحاجة إليهما فإن ذلك يكون كبيرا.

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٢.

من أخبار محمد بن عباد المهلبي الأزدي رحمه الله:

ومما رُوى من الكلام على خلق الكرم ما ذكره أبو العيناء قال: قال المأمون لمحمد بن عباد: أردت أن أوليك فمنعني إسرافك قال: مَنْع الجود سوء ظن بالمعبود، فقال: لو شئتَ أبقيت على نفسك، فإن ما تنفقه ما أبعد رجوعه إليك قال: من له مولى غني لم يفتقر، فقال المأمون: من أراد أن يكرمني فليكرم ضيفي محمدا، فجاءته الأموال، فما ذخر منها درهما، وقال: الكريم لا تُحنكّه التجارب[1].

فهذه كلمات بليغة في الكرم تدل على عمق التوحيد، فمحمد بن عباد المهلبي ينفق وهو يعلم أن الله تعالى سيَخلُف عليه ما أنفقه ولعله يستشعر قول رسول الله ﷺ «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا**»[2]، فهو يعلم أن المال مال الله جل وعلا، وأنه قد تكفل للمنفقين بالعوض، ويرى أن الإمساك سوء ظن بوعد الله تعالى، فكان ينفق حتى يستدين من أجل ذلك فيهيئ الله جل وعلا من يسد عنه دينه، كما رُوي أن المأمون قال له مرة: كم دينك يا محمد؟ قال: ستون ألف دينار فأعطاه مائة ألف دينار[3].

من أخبار دعلج السجستاني رحمه الله:

ومن الذين اشتهروا بالكرم المحدث الفقيه أبو محمد دَعْلَج بن أحمد بن دَعلج السجستاني، روى الخطيب البغدادي من خبر أحمد بن الحسين الواعظ قال: أُودِعَ أبو عبد الله ابنُ أبي موسى الهاشميُّ عشرةَ آلاف دينار ليتيم، فضاقت يده فأنفقها، وكبر الصبي وأُذن له في قبض ماله، قال ابن أبي موسى: فضاقت عليَّ الأرض وتحيرت، فبكَّرت على بغلتي وقصدت الكرخ فانتهت بي البغلة إلى درب السلولي، ووقفَتْ بي على باب دَعلَج، فدخلت فصليت خلفه الفجر، فلما انفتل رحب بي، وقمنا فدخلنا داره فقُدِّمت لنا هريسة، فأكلت وقصَّرت، فقال: أراك

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٠.

(٢) صحيح البخاري، الزكاة، رقم ١٤٤٢ (٣/ ٣٠٤)، صحيح مسلم، الزكاة رقم ٥٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٠.

منقبضا، فأخبرته فقال: كل فإن حاجتك تُقْضى، فلما فرغنا استدعى بالذهب والميزان، فوزن لي عشرة آلاف دينار، وقمت أطير فرحا، فوضعت المال على القربوس[1] وغطيته بطيلساني، ثم سلمت المال إلى الصبي بحضرة قاضي القضاة، وعظُم الثناء علي، فلما عدت إلى منزلي استدعاني أمير من أولاد الخليفة فقال: قد رغبت في معاملتك وتضمينك أملاكي، فضمنتها فربحتُ في سنتي ربحا عظيما وكسبت في ثلاث سنين ثلاثين ألف دينار، وحملت لدَعلَج المال، فقال: سبحان الله والله ما نويت أخذها، حلِّ بها الصبيان، فقلت: أيها الشيخ أيش أصل هذا المال حتى تهب لي عشرة آلاف دينار؟ فقال: نشأت وحفظت القرآن وطلبت الحديث، وكنت أتبزَّز[2] فوافاني تاجر من البحر فقال: أنت دعْلَج؟ قلت: نعم. قال: قد رغبت في تسليم مالي إليك مضاربة، فسلم إليَّ برنامجات بألف ألف درهم، وقال لي: ابسط يدك فيه ولا تعلمُ مكانا يُنْفَقُ فيه المتاع إلا حملته إليه، ولم يزل يتردَّد إليَّ سنة بعد سنة يحمل إليَّ مثل هذا، والبضاعة تنْمي، ثم قال: أنا كثير الأسفار في البحر فإن هلكت فهذا المال لك على أن تصدَّق منه وتبني المساجد، فأنا أفعل مثل هذا، وقد ثمَّر الله المال في يدي، فاكتم عليَّ ما عشت[3].

وبعد: فهذه نماذج من الكرم الفياض، فذلك التاجر الذي لم يُذكر اسمه قد فوض العالم دَعلَج السجستاني بالصدقة من ذلك المال الكثير الذي أعطاه إياه ليتاجر به، وكان دعلج أمينا حيث عمل بوصية ذلك التاجر ولم يقْصرُ نفع المال على نفسه وأسرته بل بذله في وجوه الخير.

من أخبار الوزير ابن هبيرة رحمه الله:

من مواقف الوزير أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني في مجال الكرم ما ذكره الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي نقلا عن ياقوت الحموي بإسناده: أن الوزير عُرِضت عليه جارية فائقة الحسن وظهر له في المجلس من أدبها وحسن كتابتها وذكائها وظرفها ما أعجبه، فأمر فاشتُريت له بمائة

(١) هو جزء من السرج.
(٢) يعني يتاجر في الثياب.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٣ - ٣٤.

وخمسين دينارا، وأمر أن يُهيَّأ لها منزل وجارية، وأن يُحمل لها من الفرش والآنية والثياب وجميع ما تحتاج إلـيه، ثم بعد ثلاثة أيام جاءه الذي باعها وشكى إليه ألم فراقها، فضحك وقـال: لعلك تريدا ارتجاع الجارية؟ قال: إى والله يا مولانا وهذا الثمن بحاله لم أتصرف فيه، وأبرزه، فقال له الوزير: ولا نحن تصرفنا في المثمن، ثم قال لخـادمه: ادفع إليه الجارية ومـا عليها وجمـيع ما في حجرتهـا، ودفع إليه الخرقـة التي فيها الـثمن وقال: استـعينا به على شأنكمـا، فأكثـرا من الدعاء له، وأخذها وخرج[1].

فهذا مثل بليغ في الكرم والإيثار حـيث تنازل الوزير ابن هبيرة عن تلك الجارية التي اشتـراها مع إعجابه بهـا ولم يكتف بذلك بل تنازل عن ثمنهـا للبائع، وزاده على ذلك ما أعطاها بعد ملكه إياها، وهذا الخبر يدل على مقدرة ابن هبيرة الفائقة على تحويل شهواته الجسدية إلى الرغبات الأكيـدة في تطهير نفسه والسمو بها نحو الفِعال الحميدة والأخلاق الكريمة.

إن ما وقع فيه ذلك الرجل البائع من ألم الفراق أمـر محزن، ولقد كان قصارى ما يتـمناه أن تعود إليه تلك الجارية مع إعـادة ثمنها ولكنه فوجئ بكرم ابن هبـيرة الفيـاض حيث عادت إلـيه وما حـازته وثمنُها، وهذا يُعدُّ إسـهامًـا كبيـرًا في سد حاجات المعوزين وتضميد جراحاتهم.

وقال الإمـام أبو الفرج البـغدادي: وحُكِيَ عن الوزير أنه كـان إذا مد السـماط فأكثرُ ما يـحضره الفقراء والعميان، فلمـا كان ذات يوم وأكل الناس وخرجوا بقي رجل ضرير يبكي ويقـول: سرقوا مداسـي وما لِيَ غيره، والله مـا أقدر على ثمن مداس وما بي إلا أن أمشي حـافيا وأصلي، فقام الوزير من مجلـسه ولبس مداسه وجاء إلى الضرير فوقف عنده وخلع مداسه والضرير لا يعرفه وقال له: البس هذا وأبصره على قدر رجـلك، فلبسه وقال: نعم، لا إله إلا الله كـأنه مداسي ومضى الضـرير، ورجع الوزيـر إلى مـجلسـه وهو يقـول: سلمـتُ منه أن يقـول: أنت سرقته[2].

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) الذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٨٣.

فهذا مـثل جليل في التواضع والكرم، لقد كان أيسـر من التنازل عن الحذاء أن يدفع الوزير لذلك الفـقير مـالا يشتـري به حذاء، ولكنه عزَّ علـيه أن يمشي ذلك الفقيـر الأعمى حافيا، خـصوصا حينما ذكر تحـرجه من الصلاة وقد مشى حـافيا لاحتمال أن يطأ نجاسة وهو لا يدري، ففضَّل هذا الوزير النبيل أن يؤثر بنعليه ذلك الفقير.

من أخبار الوزير علي بن عيسى رحمه الله:

ذكر الحـافظ ابن كثيـر في ترجمة أبي الحـسن علي بن عيـسى بن الجراح وزير المقتدر والقاهر من رواية أبي القاسم علي بن الحسن التنوخي عن أبيه عن جماعة: أن عطارًا من أهل الكرخ كان مشهورًا بالسنَّة، ركبه ستمائة دينار دينًا، فأغلق دكانه وانكسر عن كسبـه ولزم منزله، وأقبل على الدعاء والتضرع والصلاة ليـالي كثيرة، فلما كان من بعض تلك الليالي رأى رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول له: اذهب إلى علي بن عيسى الوزير فقد أمرته لك بأربعـمائة دينار، فلما أصبح الرجل قصد باب الوزير فلم يعرفـه أحد، فجلس لعـل أحدًا يستأذن لـه على الوزير حتى طال عليه المجلس وهـمَّ بالانصراف، ثم إنه قال لبـعض الحجبـة، قل للوزير إني رجل رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأنا أريد أن أقـصه على الوزير، فقـال له الحاجب: وأنت صاحب الرؤيا إن الوزير قد أنفذ في طلبك رسلاً متعددة.

ثم دخل الحجاب فأخبروا الوزير فقال: أدخلوه سريعا، فدخل عليه فأقبل عليه الوزير يستعلم عن حاله واسمه وصـفته ومنزله، فقال له الوزير: إني رأيت رسول الله ﷺ وهو يأمرني بإعطائك أربعمائة دينار، فأصبحتُ لا أدري من أسأل عنك، ولا أعـرفك ولا أعـرف أين أنت، وقـد أرسلت فـي طلبك إلى الآن عـدة رسل فجزاك الله خيرا عن قصدك إياي.

ثم أمر الوزير بإحضار ألف دينار فقال: هذه أربعمائة دينار لأمر رسول الله ﷺ وستمائة هبة من عندي، فقال الرجل: لا والله لا أزيد على ما أمرني به رسول الله ﷺ فإني أرجو الخير والبركة فيـه، ثم أخذ منها أربعمائة دينار، فقال الوزير: هذا الصدق واليقين، فـخرج ومعه الأربعمائة دينار فـعرض على أرباب الديون أموالهم

فقالوا: نحن نصبر عليك ثلاث سنين وافتح بهذا الذهب دكانك ودم على كسبك، فأبى إلا أن يعطيهم من أموالهم الثلث وفتح حانوته بالمائتي دينار الباقية، فما حال عليه الحول حتى ربح ألف دينار[1].

ففي هذا الخبر مثل من المعروف والإحسان الذي كان يتصف به الوزير علي بن عيسى ابن الجراح.

وفيه مثل من رحمة الله جل وعلا بأوليائه المؤمنين الذين يتضرعون إليه ويلجأون إليه وقت الشدائد، ولا ينسون عبادته في حال رخائهم، فإن ما تم من تقدير الله تعالى هذه الرؤيا التي رآها هذا الوزير والتي رآها صاحب الحاجة إنما هو أثر من آثار التوحيد الخالص الذي كان يتصف به هذا العطار، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء.

وفيه مثل من القناعة وصدق اليقين، حيث اكتفى ذلك العطار بالأربعمائة التي أمره النبي ﷺ في المنام أن يأخذها من الوزير ورد بقية الألف اعتمادًا على أن البركة فيما نص عليه رسول الله ﷺ، فبارك الله تعالى له فيها، وقضى منها دينه، وكوَّن له بها تجارة طيبة.

من أخبار عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله:

ومن أخبار السخاء عند العلماء ما ذكر الحافظ الضياء المقدسي عن الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي: أنه كان سخيًا جوادا لا يدخر دينارا ولا درهما، مهما حصَّل أخرجه، وقال: لقد سمعت عنه أنه كان يخرج في الليل بقفاف الدقيق إلى بيوتٍ متنكرا في الظلمة، فيعطيهم ولا يُعرف، وكان يُفتح عليه بالثياب فيعطي الناس وثوبه مرقَّع.

قال: وسمعت بدر بن محمد الجزري يقول: ما رأيت أحدًا أكرم من الحافظ، كنت أستدين، يعني لأطعم الفقراء، فبقي لرجل عندي ثمانية وتسعون درهما، فلما تهيأ الوفاء أتيت الرجل فقلت: كم لك؟ قال: ما لي عندك شيء، قلت: من أوفاه قال: قد أُوفِي عنك، فكان وفَّاه الحافظ وأمره أن يكتم عليه[2].

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٣١ - ٢٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٥٧.

وهكذا قدم هذا الإمام الجليل نماذج عـالية من السماحة والكرم، وتفـقُّد أحوال المحتاجين، والوفـاء عن المعسرين، مع ما كان حـريصًا عليه من إخفـاء عمله بُعدًا عن الرياء وليكون أجره عند الله أعظم.

من مواقف العز بن عبد السلام رحمه الله:

قال الحافظ عبـد الوهاب السبكي: وحكى قاضي القضاة بدر الدين بـن جماعة رحمه الله أن الشيخ (يعني العز بن عبد السلام) لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطتـه زوجته مصاغًا لها وقالت: اشتر لنا به بستـانًا نصيِّف به، فأخـذ المصاغ وباعه وتصدق بـثمنه، فقالت: يا سـيدي اشتـريت لنا؟ قال: نعم، بستانا فـي الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتـصدقت بثمنه، فقالت: جزاك الله خيراً[1].

وهكذا اشتـرى هذا العالم الربانـي بستانا في الجـنة بدلا من بستان فـي الدنيا، وهذا يدل على اتصافـه باليقين الراسخ حيث استـحضر في الحال الحـياة الآخرة، ففضل تقديم العـمل الصالح لها على متاع الدنيا الزائـل، وإذا كانت هذه المسارعة إلى الصدقـة في مال زوجتـه فكيف الحال لو كان عنده مـال خاص به؟ وبمثل هذا العالم وتوجيهه الرشيد تُحلُّ أزمات الأمة وتزول شدائدها.

ولقد كانت زوجته نعم المرأة الطائعة البارة حـيث سعدت بتصرفه ذلك في مالها ودعت له بالخير.

***

(١) هو أبو محـمد عـز الدين عبد العـزيز بن عبـد السلام السلمي، ولد عام ٥٧٧هـ وتوفي عام ٦٦٠هـ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٨٢ - ٨٣.

توجيهات ومواقف
في
تقدير أهل الفضل

لقد اقتدى الصحابة رضي الله عنهم برسول الله ﷺ في شكر أهل الفضل والثناء عليهم وتقديرهم، ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما أخرجه أبو عيسى الترمذي وأبو داود رحمهما الله من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قومًا أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنإ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ: «**لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم**»(١).

فهؤلاء المهاجرون يشعرون بفضل الأنصار عليهم رضي الله عنهم جميعًا، فيشكرونهم ويثنون عليهم أمام النبي ﷺ، ومن شدة شعورهم بفضلهم عليهم خافوا أن يذهب الأنصار بالأجر كله، ويبقوا هم بدون أجر، وهذا يبين لنا اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالثواب الأخروي، فهم قد بذلوا ما في استطاعتهم من مساعدتهم والثناء عليهم وشكرهم، ولكنهم يخشون أنه مع ذلك ينقص أجرهم الأخروي، فأبان لهم النبي ﷺ أن أجرهم لا ينقص ما قاموا بأمرين: الدعاء للمحسنين والثناء عليهم.

تقدير النبي ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما:

لقد كان رسول الله ﷺ قدوة هذه الأمة في مكارم الأخلاق، ومما رُوي عنه في تقدير أهل الفضل قوله في أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «**إن أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته**» أخرجه الإمامان البخاري ومسلم(٢).

وقوله في عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحَدَّثون**(٣) **فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم**» أخرجه الإمامان البخاري ومسلم واللفظ لمسلم(٤).

---

(١) سنن الترمذي، رقم ٢٤٨٧، صفة القيامة (٤/ ٦٥٣) سنن أبي داود، رقم ٤٨١٢، الأدب (٥/ ١٥٨).

(٢) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، رقم ٣٦٥٤ (٧/ ١٢)، صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٣٨٣ (ص ١٨٥٥)

(٣) أي ملهمون يجري الصواب على ألسنتهم

(٤) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، رقم ٣٦٨٩ (٧/ ٤٢)، صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٣٩٨ (ص ١٨٦٤)

ولقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك أخبار كثيرة.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**[1]»، فسلَّم وقال: يا رسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت إليك، قال: **يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثا)**، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر[2]، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله والله أنا كنت أظلم (مرتين)، فقال النبي ﷺ: **إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ وقال أبو بكر: صدقتَ، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟** (مرتين)، فما أُوذي بعدها»[3].

وهذا الإعلان من النبي ﷺ لفضل أبي بكر رضي الله عنه مع اعترافه بالخطأ دليل على اهتمام النبي ﷺ بتمييز أهل الفضل والإشادة بهم ليكونوا أعلام هداية في القدوة الحسنة، فإن الأمة تقاد برجالها الذين يحملون مبادئها، وليست تقاد بمجرد المبادئ، ولهذا وغيره من المقاصد العالية ركز النبي ﷺ في الثناء على أناس معدودين من الصحابة على رأسهم أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما.

وثمت أمر آخر في غاية الأهمية نلاحظه في هذا الخبر ولابد من الإشارة إليه إنصافًا لذلك الجيل الراشد واعترافًا بمدى السمو الأخلاقي الذي بلغوه، وذلك في الوضوح والصراحة، ثم العفو والتسامح.

إن الأخوة التي بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم تنقص بهذا الخلاف والمغاضبة، بل زادت قوة ومتانة بما يتبعها من العفو والتسامح، بينما نجد أبناء الدنيا على غير هذه الشاكلة.. تحامل في القلوب، وأحقاد وضغائن في الخفاء، ومداراة وبشاشة في العلانية، وظهور بوجه أمام بعض الناس وبوجه آخر أمام الآخرين ممن يخالفون الصنف الأول في المعتقد والرأي، يحاولون بذلك كسب رِضى الناس

(١) أى دخل في غمرة الخصومة. (٢) أي يتغير ويتلون من الغضب.
(٣) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، رقم ٣٦٦١ (٧/ ١٨).

جميعًا عنهـم، ولو كانوا متباينين في العقيدة التي يتـرتب عليها الحب والبغض أو يحاولون الكسب الـدنيوي من وراء أعمـالهم هذه، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله «**تجد من شـر الناس يوم القيـامة ذا الوجهين الذي يأتـي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**» أخرجه الإمامان البخارى ومسلم(١).

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما:

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن مردويـه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهـما قـال: قـام رجل إلى أبي بكر الصديـق رضي الله عنه بعد رسـول الله ﷺ فقال: يا خليفة رسول الله مَنْ خـير الناس؟ قال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: ولأي شيء قدمته على نفسك؟ قال: بخصال، لأن الله تعالى باهى به الملائكة ولم يباه بي، ولأن جبـريل أقرأه السلام ولم يقرئني، ولأن جبـريل قال: يا رسول الله اشدد الإسلام بقـول عمر، القول مـا قال عمر، ولأن الله صـدقه في آيتين من كتابه ولم يصدقنـي، قال: عاتب النبي ﷺ بعض نسائه فأتاهم عمـر فقال: لتنتهن عن رسول الله ﷺ أو لَيُنزلنَّ الله فيكن كتابًا فأنزل الله تعالى ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا**﴾ الآية [التحريم: ٥]، ولأن عمر قال: يا رسول الله إنه يدخل عليهن البر والفاجر فلو ضربت عليهن الحجاب، فأنزل الله تعالى ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الأحزاب: ٥٣]،ولأن عمر قال: يا رسول الله لو اتخذت من مـقام إبراهيم مصلى، فـأنزل الله تعالي : ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال: فلما قبض أبو بكر قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين: من خـير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبـو بكر الصديق، فمن قال غيره فعليه ما على المفتري(٢).

ففي هذا الخبـر بيان اتصاف أبي بكر الصديق بصفتي التـواضع والإيثار، فعلى الرغم مما استقر في أذهان الصـحابة رضي الله عنهم من أن أبا بكر هو أفضل هذه

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٠٥٨، الأدب (١٠/ ٤٧٤)، صحيح مسلم، كتاب البر، رقم ٩٨ .
(٢) كنز العمال ١٥/ ٢-٣ .

الأمة بعد نبيها ﷺ فإن أبا بكر يفضل عمر عليه رضي الله عنهما، ويذكر شيئًا من فضائله التي تميز بها.

ونجد عمر من شدة حماسه لتفضيل أبي بكر على جميع أفراد الأمة بعد رسول الله ﷺ يهدد من فضله عليه بالجلد ثمانين جلدة وهو حد المفتري.

إن هذا الخبر وأمثاله يبين لنا شيئًا من الصفات التي تفوق بها الصحابة رضي الله عنهم، من الإيثار، والتواضع وتقدير أهل الفضل.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ ابن الأثير من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: وفد ناس من أهل الكوفة وناس من أهل البصرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: فلما نزلوا المدينة تحدث القوم بينهم إلى أن ذكروا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ففضل بعض القوم أبا بكر على عمر، وفضل بعض القوم عمر على أبي بكر، وكان الجارود بن المُعَلَّى ممن فضل أبا بكر على عمر، فجاء عمر ومعه دِرَّةٌ (أي عصا) فأقبل على الذين فضلوه على أبي بكر فجعل يضربهم بالدرة، حتى ما يتقى أحدهم إلا برجله، فقال له الجارود: أَفِقْ أَفِقْ يا أمير المؤمنين فإن الله عز وجل لم يكن ليرانا نفضلك على أبي بكر، أبو بكر أفضل منك في كذا وأفضل منك في كذا، فَسُرِّى عن عمر، ثم انصرف، فلما كان من العشي صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر، فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مفتر عليه ما على المفتري[1].

وهكذا رأينا موقفًا جليلاً من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث غضب غضبًا شديدًا على من فضلوه على أبي بكر رضي الله عنه، وقد حمله ذلك على القيام بتأديبهم وهو في حال من التأثر الشديد من مقالتهم، وإنه حينما يقوم بذلك العمل لا يقوم تظاهرًا بالتواضع وإنما ينأى بنفسه عن أن يكون من أولئك الذين لا يردون الفضل لأهله.

إنه عاصف يعصر قلبه أن سمع من يفضله على أبي بكر، فظهرت آثار هذا العاصف بالصورة التأديبية التى أدَّب بها أولئك الناس.

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٢١٥ - ٢١٦ .

ولئن شاهد الناس منه شيئًا من مظاهر إجلاله لأبي بكر فإن ما يُكِنُّ قلبه أبلغ من ذلك بكثير، ولا أدل على ذلك من ظهور السرور على وجهه حينما بين له المعلَّى فضل أبي بكر عليه.

«أفق أفق يا أمير المؤمنين» كلمات شديدة قالها المعلَّى لعمر، فهل كان عمر في غيبوبة!! الحقيقة أنه كان في حال من الغضب الشديد الذي هيمن على مشاعره فعبر عنه بذلك التأديب الذي قام به، ولقد كان المعلَّى بحاجة إلى هذا التعبير لأنه هو السلوك المناسب لرفع حالة الغضب الشديد الذي هيَّج أمير المؤمنين عمر، فهي كلمات تنبيه قوية ليصغي عمر لما سيقوله له من بيان فضل أبي بكر عليه، فلما سمع عمر ذلك البيان زال غضبه واطمأنت نفسه، فأين طلاب الدنيا الذين يتسابقون على بناء أمجادهم الشخصية ليسمعوا هذه الروائع العظيمة من حياة الصحابة رضي الله عنهم!!

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي هريرة رضي الله عنه قال قال عمر بن الخطاب: عليٌّ أقضانا.

وأخرج من خبر سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن[1].

وهكذا يقدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل الفضل، ويظهر كفاءة الأكفاء فيما تميزوا به، فلما كان أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه متفوقًا في العلم بالأمور الدقيقة، وحل المشكلات المعضلة أشاد به عمر، وكان يبحث عنه إذا نزل به شيء من ذلك، ويشفق من فقده لعدم وجود من يسد مسده في ذلك.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث ثعلبة بن أبي مالك: أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطًا بين نساء أهل المدينة، فبقى مرط جيد، فقال بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر: أم سليط أحق - وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ - قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القِرب يوم أحد[2].

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٣٩ .

(٢) صحيح البخاري، رقم ٢٨٨١، الجهاد (٦/ ٧٩) وقوله «تزفر» يعني تحمل.

ففي هذا الخبر حفظ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حق أم سليط بنت عبيد ابن زياد المازنية الأنصارية رضي الله عنها، وقدَّر لها موقفها مع المؤمنين المجاهدين يوم أحد، ففضَّلها بذلك الثوب المتميز، وكوْنُ عمر يذكر هذا الموقف بعد سنوات من زمانه دليل على اهتمامه بما يقدمه المسلمون من أعمال البر والإحسان، وخاصة فيما يتعلق بالجهاد، وهذا أسلوب تربوي بناء، فإن صاحب المعروف إذا قَدَّر له المسلمون أعماله يزداد حماسًا وإقدامًا على المزيد من البذل والإحسان، ويسارع الآخرون في التنافس على أعمال الخير، وإن كان الهدف الأساسي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة، ولكن ثناء المؤمنين من عاجل بشرى المؤمن في هذه الحياة الدنيا.

ومن ذلك ما أخرجه أيضًا المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر أفلح مولى أبي أيوب قال: كان عمر رضي الله عنه يأمر بِحُلَل تُنسج لأهل بدر يُتَنَوَّق[1] فيها، فبعث إلى معاذ ابن عفراء رضي الله عنه الحلة فقال لي معاذ: يا أفلح بع لي هذه الحلة، فبعتها له بألف وخمسمائة، ثم قال: اذهب فابتع لي رقابًا، فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرءًا اختار قشرتين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لَغَبِيْن الرأي[2] اذهبوا فأنتم أحرار.

فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه أنه لا يلبس ما يبعث به إليه، فاتخذ له حلة غليظة أنفق عليها مائة درهم، فلما أتاه بها الرسول قال: ما أراه بعثك إليّ! قال: بل والله إليك بعثني، فأخذ الحلة فأتى بها عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين بعثتَ إلي بهذه الحلة؟ قال: نعم، إنا كنا نبعث إليك حلة مما يتخذ لك ولإخوانك فبلغني أنك لا تلبسها، فقال: يا أمير المؤمنين إني وإن كنت لا ألبسها فإني أحب أن تأتيني من صالح ما عندك، فأعاد له حلَّته[3].

فهذا الخبر فيه موقفان:

الأول: تقدير أهل الفضل، حيث اختص أمير المؤمنين أهل بدر بمزيد من التقدير والعناية، وتقدير أهل الفضل يُعدُّ نوعًا من الشكر على الجميل والإحسان، يناله

(١) أي يتأنق بها ويتجمل.
(٢) أي ضعيف الرأي.
(٣) تاريخ المدينة المنورة ٧٨١ - ٧٨٢ .

صاحب الفضل في الدنيا، إلى جانب ما يدخره الله تعالى له في الآخرة، وهو الأمر الأهم، كما أنه يُعدُّ تشجيعًا للمسلمين على المزيد من تقديم الأعمال الصالحة التي ينتفع بها المسلمون ويترتب عليها عز الإسلام ودولته.

الثاني: موقف جليل من معاذ بن عفراء رضي الله عنه في الزهد في الدنيا، وإيثار العمل الصالح الذي يرجو ثوابه في الآخرة، ولقد قارن بين ثوبين يلبسهما وعملٍ صالح يتمثَّل في عتق خمسة مماليك، فحكم على من يقدم الثوبين بأنه ضعيف الرأي، وهذا يدل على ضآلة الدنيا وضخامة الآخرة في عينه، فلهذا أقدم على ذلك العمل الصالح.

ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: «خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقتْ عمرَ امرأةٌ شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغارًا والله ما يُنضجون كراعًا ولا لهم زرع ولا ضرع[1] وخشيت أن تأكلهم الضبع[2]، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ. فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال مرحبًا بنسب قريب. ثم انصرف إلى بعير ظهير[3] كان مربوطًا في الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها خطامه ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهماننا فيه»[4].

فهذا موقف لأمير المؤمنين عمر في تقدير أهل السابقة والفضل، فقد اهتم بتلك المرأة تقديرًا لأبيها خفاف بن إيماء الغفاري رضي الله عنه، وفي ذكر كونه من أهل الحديبية بيان لما استقر في الأذهان من تقدير الذين حضروا بيعة الرضوان يوم الحديبية لأن الله تعالى قد رضي عنهم كما جاء في قوله سبحانه ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ...**﴾ الآية [الفتح: ١٨].

---

(١) أي ليس عندهم ما يكفي لحاجتهم، وليس لهم مورد من زراعة ولا ماشية.

(٢) أي السنة المجدبة. (٣) أي قوي الظهر معد للحاجة.

(٤) صحيح البخاري، رقم ٤١٦٠، المغازي (٧/ ٤٤٥).

وفي قول عمر «والله إني لأري أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه» إشادة بالمجاهدين في سبيل الله تعالى ومالهم من فضل في حماية الأمة وتوسيع مصادر تمويلها.

وفي هذا الخبر تتكشف لنا بعض نواحي عظمة عمر رضي الله عنه، ومنها رحمته بالضعفاء ولينه لهم في حدود الحق، والعظماء هم الذين يتحسسون آلام الضعفاء فيقفون لمواساتهم.

ونجد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ينكر بشدة على رجل رد على ابن مسعود لما أمره بالالتزام بحكم شرعي وذلك فيما ذكر الإمام الذهبي من حديث أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلا قد أسبل، فقال: ارفع إزارك، فقال: وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك، قال: إن بساقي حموشة[1] وأنا أؤم الناس فبلغ ذلك عمر، فجعل يضرب الرجل ويقول: أتردُّ على ابن مسعود؟[2].

وفي هذا اهتمام كبير من عمر رضي الله عنه في حفظ مكانة علماء الأمة، ولا يمكن أن تستقيم أحوال المجتمع إلا بحفظ كرامة العلماء الربانيين لأنهم قادة الأمة وموجهوها، فإذا تجرأ عامة الأمة عليهم انقطع خيط المهابة الذي يفرض وجود علاقة قوية بين العلماء وسائر أفراد الأمة.

ونجد عمر بن الخطاب يقدر فضل ابن مسعود رضي الله عنهما في حفظ القرآن، ومما يبين ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث قيس بن مروان رحمه الله تعالى: أنه أتى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال: جئتُ يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت بها رجلا يُمْلِي المصاحف عن ظهر قلبه، فغضب وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرَّحْل، فقال: ومن هو ويحك؟ قال: عبد الله ابن مسعود، فما زال يطفأ ويُسَرَّى عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها، ثم قال: ويحك والله ما أعلمه بقي من الناس أحد هو أحق بذلك منه، وسأحدثك عن ذلك، كان رسول الله ﷺ لا يزال يسمر عند أبي بكر رضي الله عنه الليلة كذلك في الأمر من أمر المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه،

(١) يعني أنه كان دقيق الساقين.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته، فلما كدنا أن نعرفه قال رسول الله ﷺ: **من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**، قال: ثم جلس الرجل يدعو فجعل رسول الله ﷺ يقول له: **سَلْ تُعْطَهُ، سل تعطه**، قال عمر رضي الله عنه: قلت: والله لأغدونَّ إليه فلأبشرنَّه، قال: فغدوت إليه لأبشره فوجدت أبا بكر رضي الله عنه قد سبقني إليه فبشره، ولا والله ما سبقته إلى خير قط إلا وسبقني إليه[1].

هذا وإذا قارنا بين فزع عمر حينما طرق مسامعه خبر من يملي المصاحف من قلبه، وبين سكينته ورضاه حين علم أن المعنيَّ بذلك هو عبد الله بن مسعود، يتبين لنا سمو منزلة ابن مسعود العلمية بين الصحابة رضي الله عنهم.

ثم إذا رأينا ثناء النبي ﷺ عليه أمام كبار الصحابة، ثم تذكُّر عمر لهذا الثناء، وروايته إياه ندرك مدى اهتمامهم بتقدير أهل الفضل، وحفظ منزلتهم، والإشادة بها في المجتمع.

ومن ذلك ما ذكره الخطيب البغدادي بإسناده عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه: أنه أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أناس من طيء - أو قال من قومه - فجعل يفرض للرجال من طيء في ألفين ألفين، قال: فاستقبلته فأعرض عني، فقلت: يا أمير المؤمنين أما تعرفني؟ قال: بلى إني والله لأعرفك، أسلمتَ إذْ كفروا، وأقبلتَ إذا أدبروا، ووفيتَ إذ غدروا، وإن أول صدقة بيَّضَتْ وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه صدقة طيء، جئت بها إلى رسول الله ﷺ[2].

وهكذا ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضل عدي بن حاتم وسابقته في الإسلام رضي الله عنه بعد مرور سنين على مواقفه المشرفة في عهد النبي ﷺ ويوم أن ارتدت أو تمردت أكثر قبائل العرب بعد وفاته ﷺ، حيث حمل عدي قومه على طاعة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلم ينس له عمر هذا الفضل بل أثنى عليه علانية بما يستحق من التكريم والشكر، وهكذا

(١) مسند أحمد ١/ ٢٥ - ٢٦ .
(٢) تاريخ بغداد ١/ ١٩٠ .

ينبغي لكل مسؤول أن يكون خبيرًا بفضل أهل الفضل وأن يثني عليه في الوقت المناسب.

من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

من ذلك اعترافه بفضل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مع ماسبق بينهما من خلاف، وقد أخرج الخبر في ذلك الإمام الطبري من حديث أبي حبيبة مولى طلحة قال: دخل عمران بن طلحة على عليّ بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧] ورجُلان جالسان على ناحية البساط فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانًا؟ فقال علي: قُومَا أبعد أرضٍ وأسحقها، فمن هم إذن إذا لم أكن أنا وطلحة[1].

فقد بين علي فضل طلحة رضي الله عنهما،وإنما يُعرف فضل الإنسان بما يقدِّم من عمل يُرجَى به حسن العُقْبَى في الآخرة، فهما أخوان تتلمذا في مدرسة النبوة، ولئن كان باعد بينهما اجتهادهما في آخر حياتهما حيث اختلف رأيهما في تطبيق الإسلام فإن أُخُوَّتهما الإيمانية باقية راسخة ما دامت قلوبهما تسير نحو هدف واحد هو ابتغاء رضوان الله تعالي والدار الآخرة.

ولقد استبعد اثنان من الجاهلين أن يتقابل المسلمون في ميدان القتال ثم يكون مصيرهم في الآخرة إلى الجنة فزجرهما علي رضي الله عنه لكون الزجر أجْدَى في مقام الجدل المبني على اتباع الهوى، ومن أجل ذلك لم يورد خبر شهادة رسول الله ﷺ لطلحة بالجنة مع وضوحه لكون الرجلين المعترضين يعلمان ذلك، ولكنهما من أهل الأهواء المنحرفة.

وفي موقف علي رضي الله عنه هذا درس للمسلمين في حفظ حقوق إخوانهم، فالخلاف الشديد الذي دار بينه وبين إخوانه لا يعني تغير قلوبهم، بل كل واحد منهم يرى للآخر فضله وإن خالفه في الاجتهاد.

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٧ .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي السفر قال: رُئِيَ على علي - رضي الله عنه - بُرْدٌ كان يكثر لبسه، فقيل له: يا أمير المؤمنين إنك تكثر لبس هذا البرد! قال: إنه كسانيه خليلي وصفيي وصديقي وخاصتي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، إنه عمر ناصَحَ الله فنصحه الله تعالي، ثم بكى[1].

نعم، بكى رضي الله عنه من شدة تأثره لَمَّا ذكر خليله عمرَ رضي الله عنه الذي اكتسب محبة معاصريه بعدله وحكمته وتواضعه وزهده في الدنيا، وسائر صفاته الحميدة.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي جحيفة قال: دخلت على علي - رضي الله عنه - فقلت ياخير الناس بعد رسول الله ﷺ، قال: فقال: مهلا يا أبا جحيفة، أوَلا أخبرك بخير الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر، ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب مؤمن، ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع بغضي وحب أبي بكر وعمر في قلب مؤمن[2].

ففي هذا الخبر يبين علي رضي الله عنه فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الناس بعد رسول الله ﷺ، ويبين أن حبه ملازم لحبهما، وأن من أبغضهما فقد أبغضه، ومن أبغضه فقد أبغضهما، ذلك لأنهم إخوة في الله متحابون، ويسر كل واحد منهما ما يسر صاحبيه ويسوؤه ما يسوؤهما.

ومن ذلك ما أخرجه اللالكائى والشيرازي وأبو الحسن البغدادي وابن منده وابن عساكر من خبر سويد بن غفلة قال: مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر وينتقصونهما، فأتيت عليًا فذكرت له ذلك فقال لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه.

قال: ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال: ما بال أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه ومما يقولون برىء وعلى ما يقولون معاقب، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لا يحبهما إلا مؤمن تقي ولا يبغضهما إلا فاجر

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٦٣ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٠١، وانظر كنز العمال ١٥/ ١٦ .

ردي، صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء، يأمران وينهيان ويعاقبان، فما يجاوزان فيما يصنعان رأي رسول الله ﷺ، ولا يرى رسول الله ﷺ كرأيهما رأيا، ولا يحب كحبهما حبا، مضى رسول الله ﷺ وهو عنهما راض، والناس راضون، وولَّى أبا بكر الصلاة، فلما قبض الله نبيه ﷺ ولاه المسلمون ذلك، وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان، وكنت أول من لبَّى له من بني عبد المطلب وهو لذلك كاره، يود أن بعضنا كفاه فكان والله خير من بقي، أرأفه رأفة، وأرحمه رحمة، وأكيسه ورعا، وأقدمه إسلامًا، شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورحمة، وبإبراهيم عفوًا ووقارًا، فسار بسيرة رسول الله ﷺ حتى قبض رحمة الله عليه.

قال: ثم ولَّى الأمر من بعده عمر بن الخطاب، واستأمر في ذلك الناس، فمنهم من رضي ومنهم من كره، فكنت ممن رضي، فو الله ما فارق عمر الدنيا حتى رضي من كان له كارهًا، فأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ وصاحبه، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل أثر أمه، وكان والله خير من بقي، رفيقًا رحيمًا، وناصر المظلوم على الظالم، ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملكًا ينطق على لسانه، وأعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قوامًا، وقذف في قلوب المؤمنين الحب له، وفي قلوب المنافقين الرهبة منه، شبهه رسول الله ﷺ بجبريل فظًا غليظًا على الأعداء، وبنوح حَنِقًا ومغتاظًا على الكافرين، فمن لكم بمثلهما؟ لا يُبْلَغ مبلغهما إلا بالحب لهما، واتباع آثارهما، فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني وأنا منه برىء، ولو كنت تقدمت في أمرهما[1] لعاقبت أشد العقوبة، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ما على المفتري، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين هو، أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولكم[2].

فهذه خطبة بليغة بين فيها علي بن أبي طالب أفضلية الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، وذكر شيئًا من فضائلهما، وهذا موقف يذكر له في الوقت الذي غالى في حبه وتفضيله بعض التابعين، فقال كلامًا فصلاً في هذا الموضوع ووضع الأمور في نصابها.

---

(١) أى لو كنت أنذرت مَنْ فعل ذلك.

(٢) كنز العمال ١٦/٥ - ١٨، تاريخ دمشق ٣٦٦/٤٤.

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

أخرج أبو بكر الخطيب البغدادي من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: لما كان من بعض همج الناس ما كان[1] جعل رجل يسأل عن أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ، فجعل لا يسأل أحدًا إلا دله على سعد بن مالك، قال فقيل له: إن سعدًا رجل إذا أنت رفقت به كنت قَمِنًا أن تصيب منه حاجتك، وإن أنت خرقت به كنت قَمِنًا أن لا تصيب منه شيئًا، فجلس أيامًا لا يسأله عن شيء حتى استأنس به وعرف مجلسه، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩] قال فقال سعد: هات ما قلت: لاجرم والذي نفس سعد بيده لا تسألني عن شيء أعلمه إلا أنبأتك به، قال: أخبرني عن عثمان، قال: كنا إذ نحن جميع مع رسول الله ﷺ كان أحسننا وضوءًا، وأطولنا صلاة وأعظمنا نفقة في سبيل الله تعالى[2].

فهذا مثل من حفظ الصحابة رضي الله عنهم حقوق إخوانهم بعد موتهم، فقد اختلف الناس من التابعين في شأن عثمان بن عفان رضي الله عنه فكثر القدح فيه ممن لم يعاصروه إلا في خلافته أو بعدها، فركزوا على ما رأوه مثالب، وغضوا الطرف عن فضائله الجمَّة ومناقبه الحميدة، وكان بعضهم يأتي إلى من بقي من كبار الصحابة فيسأله عن عثمان، ربما للتثبت في أمره، وربما لمحاولة الحصول على نقد من صحابي كبير، ليطير به في الآفاق، ويعمر به قلوب أصحاب الفتن، لكن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ليس ممن يغمط أصحاب الحقوق فضلهم، وليس من تُعمر به مجالس الفتن، بل هو خرِّيج المدرسة النبوية التي يحافظ أفرادها على أعراض المسلمين أكثر مما يحافظون على أموالهم وجاههم، فكان منه هذا الجواب السديد الذي يُعدُّ حجرًا في حلوق الراتعين في الفتن الشاغلي أوقاتهم وجهودهم في تلمس العيوب والنقائص لأعلام المسلمين الذين بهم انتشر الإسلام وبهم استقرت دولته.

---

(١) يعني في الفتنة التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه.

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٤٤٧ .

من مواقف كعب بن مالك رضي الله عنه:

أخرج الإمام أبو داود من حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك، وكان قائد أبيه بعدما ذهب بصره، عن أبيه كعب بن مالك أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحَّم لأسعد بن زرارة قال: فقلت له: إذا سمعت النداء يوم الجمعة ترحَّمت لأسعد بن زرارة، قال: لأنه أول من جمَّع بنا في هزْم النَّبِيت[1] من حرة بنى بياضة في نقيع يقال له نقيع الخَضَمات، قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون[2].

هذا وإن تذكُّر كعب بن مالك لفضل أبي أمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنهما بعد ذلك العهد الطويل دليل علي صدق الوفاء، والقيام بحق الشكر على الجميل، ولقد كانت مبادرة أبي أمامة في تطبيق شعائر الإسلام في مجتمع لم يألفها شجاعة عالية تَنِمُّ عن إيمان راسخ ووعي تام بأهداف الإسلام العليا، فلهذا استحق من كعب بن مالك هذا الدعاء الذي واظب عليه سنوات طويلة وكان مظهرًا من مظاهر الشكر والثناء.

فالذين يبادرون إلى إقرار سنن الإسلام وتطبيقها في مجتمع لا يقبلها ابتداءً لهم أجر عظيم، كما جاء في قول رسول الله ﷺ «**من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء**»[3].

هذا وإن بروز هذا المشهد في ذهن كعب بن مالك مع هذا العمر المديد دليل على تمكن هذا الخلق الرفيع من نفسه، وهو مثل صادق على عظمة النبي ﷺ ونجاحه الكبير في تربية ذلكم الجيل الراشد.

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه:

وهناك موقف كريم لأبي الدرداء رضي الله عنه أشاد فيه بفضل بعض علماء الصحابة، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري من حديث علقمة قال: قدمت الشام فصليت ركعتين، ثم قلت اللهم يسِّر لي جليسًا صالحًا، فأتيت قومًا فجلست

(١) يعني في مكان بني النبيت، والهزم المكان المنخفض.
(٢) سنن أبي داود/ كتاب الصلاة، باب الجمعة في القرى، حديث رقم ١٠٦٩ .
(٣) صحيح مسلم، رقم ١٠١٧، العلم ١٥ (٢٠٥٩).

إليهم، فإذا شيخ قد جاء حتى جلس إلى جنبي، قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء، فقلت: إني دعوت الله أن ييسر لي جليسًا صالحًا فيسرك لي، قال: ما أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أوليس عندكم ابن أم عبد صاحب النعلين والوساد والمطهرة؟ أفيكم الذي أجاره الله من الشيطان، يعني على لسان نبيه ﷺ؟ أوليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلم أحد غيره؟[1].

وقوله «أليس فيكم ابن أم عبد» يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ووصفه المذكور في الخبر كناية عن قربه من النبي ﷺ وقيامه بخدمته وذلك يعني كثرة تحصيله العلمي منه، وقوله «أفيكم الذي أجاره الله من الشيطان؟» يعني عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصاحب السر هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لأن رسول الله ﷺ أسر إليه بأسماء المنافقين.

وهكذا يعرف الصحابة رضي الله عنهم فضل إخوانهم فيثنون عليهم أمام المسلمين بذكر مناقبهم، وهذه سنة حسنة ينبغي أن تنتشر بين العلماء، وذلك بأن يحاول العالم تثبيت مكانة العلماء الآخرين في بلادهم عن طريق نشر فضائلهم في قومهم ليعودوا لعلمائهم وهم يحملون عنهم سمعة حسنة، وهذا له نفعه ووقعه في النفوس، خاصة إذا صدر من العالم الكبير لمن هو دونه.

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ومن أمثلة تذكر حقوق أهل الفضل وأدائها في الوقت المناسب ما أخرجه الإمام الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أتى عبد الله بن عباس بالبصرة وقد أمَّره عليها علي رضي الله عنه، فقال: يا أبا أيوب إني أريد أن أخرج لك من مسكني كما خرجت للنبي ﷺ، فأمر أهله فخرجوا وأعطاه كل شيء أغلق عليه الدار، فلما كان انطلاقه قال: حاجتك؟ قال: حاجتي عطائي وثمانية أعبد يعملون في أرضي، وكان عطاؤه أربعة آلاف، فأضعفها له خمس مرات، فأعطاه عشرين ألفًا وأربعين عبدًا»[2].

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٧٤٢، فضائل الصحابة (٧/ ٩٠).

(٢) المعجم الكبير ١٤٨/٤، رقم ٣٨٧٦ .

وهكذا تذكَّر ابن عباس ما قام به أبو أيوب من إنزال النبي ﷺ في بيته يوم الهجرة والقيام على خدمته والعناية به، فأراد أن يكافئه على هذا الفضل لمَّا قدر على ذلك، وهو نوع رفيع من الوفاء، وبراعة فى اختزان المعاني السامية في الذاكرة وقد مرَّ عليها قرابة أربعين عامًا، ثم إبداؤها عند اللزوم لبناء الحاضر عليها، وإنما يعرف قيمة أهل الفضل ويتذكر أخبارهم أهل الفضل والوفاء.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث طارق بن شهاب قال: قلت لابن عباس: أيُّ رجل كان عمر؟ قال: كان كالطير الحَذِر الذي كأن له بكل طريق شركا[1].

ففي هذا الخبر يصف عبد الله بن عباس أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم بالنباهة واليقظة والفراسة، فهو بذلك يدرك الأخطار المحدقة بالأمة وما يتوقع أن يكون من تخطيط الأعداء، ويتصور المشكلات التي قد تحدث فيضع الحلول المناسبة لها بفكره، فإذا حدثت بوادرها سارع إلى حسم القضايا قبل أن تستفحل، ويشبه هذا الوصف قول عائشة رضي الله عنها في عمر رضي الله عنه: كان والله أحوذيّا[2] نسيج وحدِه، قد أعدَّ للأمور أقرانها، كأنما خلق للإسلام.

من مواقف معاوية رضي الله عنه:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة: صف لي عليًا: فقال: أوتعفيني؟ قال: بل صفْه. قال: أوتعفيني؟ قال: لا أعفيك. قال أما إذًا فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشُن، ومن الطعام ما جَشُب[3]، كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة، ولا نبتديه لعظمه. فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٢.
(٢) الأحوذي المشمِّر في الأمور القاهر لها.
(٣) الجشب من الطعام: الغليظ الخشن، وقيل: غير المأدوم.

يطمع القويّ في باطله، ولا ييـئس الضعيفُ من عدله. وأشهـد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سُجوفَه وغـارت نجومُه، وقد مَثُلَ في محرابه قابضًا على لحيـته يتـململ تململ السليم[1]، ويبكي بكاء الحـزين، وكأني أسمـعه وهو يقول: يا دنيا يا دنيا أبي تعرّضت أم لي تشوفت؟ هيـهات هيهات غُرّي غيري، قد بَتَتُّك[2] ثلاثًا لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلّة الزاد وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

قال فذرفت دموع معاوية رضي الله عنه حتى خرّت على لحيته فما يملكها، وهو ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء. ثم قال معاوية: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حـزنك عليه يا ضرار قال: حزن من ذُبح ولـدها في حجرها فلا ترقأ[3] عبرتها، ولا يسكن حزنها[4].

فهذا وصف بليغ من ضرار الكناني لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث وصفه بـبعد النظر، والقوة في الحق، والفصاحـة والبيان، والعدل في الحكم، وغزارة العلم والتقيد بالحكمة، والزهد في الدنيا ومظاهرها، والأنس بذكر الله تعالى ومناجاته، والبكاء من خـشيته جل وعلا، واستدامـة التأمل والتفكير في أمور الدنيا والآخرة، والتواضع لإخوانه المؤمنين، وتعظيم أهل التقوى، والانتصار للضـعفاء حـتى يأخذوا حـقوقـهم، والقوة على أهل البـاطل حتى يرتـدعوا عن باطلهم، وقوة الاتصال بالله سبحانه وكثرة العبادة.

فهذه صفات عظيمة قلما تجتمع لإنسان واحد، وهي تدل على تفوق علي رضي الله عنه في أمور الدنيا والدين.

وفي الخبر موقف لمعاوية رضي الله عنه حيث بكى من خشية الله تعالى، ووافق ضرارا على تلك الصفـات العالية التي وصف بها عليـا رضي الله عنه مع ما سبق بينهما من خلاف، وفي هذا الخبر وأمثاله رد على الأخبار التي تفيد بأن معاوية أمر بسبِّ علي على المنابر، وهذه الأخبار ظاهرة البطلان لأنهـا تتنافى تماما مع أخلاق

(١) السليم يعني المريض فهو من أسماء الأضداد.

(٢) أي طلقتك. (٣) أي لا تجف.

(٤) صفوة الصفوة ١/ ٣١٥ - ٣١٦.

معاوية الذي اشتهر بالحلم والسماحة والسياسة الحكيمة، فإنه ليس من الحكمة أن يُصدر هذا الأمر الذي سيثير عليه غضب الأمة الإسلامية في وقت كان يحاول بكل وسيلة اجتذاب قادتها وحكمائها.

من مواقف أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

وفي باب الثناء على العلماء من أقرانهم تذكر هذه الحادثة التي جرت بين أبي موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، فقد أخرج الإمامان أحمد والبخاري وغيرهما من حديث هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابْنَةٍ وابنةِ ابن وأخت[1] فقال: للابنة النصف وللأخت النصف، وائْتِ ابن مسعود سيتابعني، فسئل ابن مسعود وأُخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين، أقضي بما قضى النبي ﷺ: للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى وأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم[2].

وهذا موقف جليل من أبي موسى رضي الله عنه حيث خالفه في الحكم عبدالله بن مسعود فلم يغمطه حقه، ولم ينتقص من قدره، بل أحال الناس عليه في الفتيا اعترافًا بقدره العلمي، وهكذا يجب أن تكون العلاقة بين علماء الدين حتى تبقى منزلتهم عالية في النفوس ويحترمهم الناس.

وفي هذا بيان لحياة الصحابة رضي الله عنهم القائمة على الحب والإخاء، والاعتراف لأهل الفضل، والترفع عن الأنانية.

من مواقف حذيفة رضي الله عنه:

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: لأن أعلم أن فيكم مائةَ مؤمن أحبُّ إليَّ من حمر النعم وسودها، فقال أصحاب النبي ﷺ: ما تهاجرنا بيننا، ولا تشاتمنا بيننا ولا تفرقنا، قال: هل

---

(١) يعني عن قسمة الميراث بينهن.

(٢) مسند أحمد ١/ ٤٦٣، صحيح البخاري، رقم ٦٧٣٦، الفرائض (٢/ ١٧).

فيكم من لا يخاف في الله لومة لائم؟ ثم بكى، ثم قال: لا أعلمه إلا عمر بن الخطاب فكيف أنتم لو فارقكم؟![1].

في هذا الخبر يبين لنا حذيفة رضي الله عنه صفة من الصفات التي تميز بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهي قول الحق والعمل به في جميع الظروف والأحوال، وعدم خشية الناس، وهذا مقام من مقامات الدين العظيمة، وهو دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين، وبه تصلح أمور الأمة، ويستسلم الناس للحق طوعا أو كرها.

ويقصد حذيفة بذلك الكمالَ في هذه الصفة، وإلا فإن الصحابة يتصفون بهذه الصفة بِنِسَب متفاوتة، ولكنهم لا يصلون في ذلك إلى مستوى عمر ولا إلى قريب منه رضي الله عنهم أجمعين.

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث شقيق بن سلمة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: ليس عن هذا أسألك ولكن التي تموج كموج البحر، فقال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال عمر: أَيُكسَر الباب أم يفتح؟ قال: بل يكسر، قال عمر: إذًا لا يُغلق أبدا، قلت: أجل، قلنا لحذيفة؟ أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غدٍ ليلة، وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط، فَهِبْنَا أن نسأله من الباب، فأمرنا مسروقًا فسأله فقال: مَنِ الباب؟ قال: عمر[2].

ففي هذا الحديث بيان لمنزلة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في الإسلام، فهو الباب الذي كان يحجز بين المسلمين والوقوع في الفتن، وهذا لا يعني أن كل الصحابة والتابعين قد وقعوا في الفتنة بعد عمر، بل إن أكثر الصحابة وبعض التابعين ظلوا على استقامتهم وزهدهم في الدنيا حتى بعد وفاته، ولكن المعتبر هو

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٣٢.

(٢) صحيح البخاري، رقم ٧٠٩٦، الفتن (١٣/٤٨). صحيح مسلم رقم (١٤٤) الإيمان (ص١٢٨).

العرف الاجتماعي الذي يسيِّر الناس نحو سلوك معين وإن لم يقتَنِعْ به بعضهم، والرأي العام الذي يشكِّل تصورات الناس وأفكارهم، فقد كانت الاستقامة على الدين والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة هي المفاهيم السائدة قبل وفاة عمر، وكان الناس يتسابقون في إظهار حياة التقشف في الملبس والمأكل وغير ذلك من أمور الدنيا، وإن كان بعضهم في قرارة نفسه يودُّ أن يعيش حياة أكثر رخاء ونعيما، فلما توفي عمر أصبح هناك انفتاح نحو الدنيا من الذين لم يكونوا قبل ذلك مقتنعين بحياة الزهد والتقشف.

وكانت طاعة الإمام والولاة هي المنهجَ السائد قبل وفاة عمر رضي الله عنه سواء كان ذلك عن رضى أو عن كراهية، فلما توفي عمر كثر الطعن على الإمام والولاة حتى أدى ذلك إلى قيام الثورة المعروفة على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، ثم إلى وقوع القتال المعروف في عهد علي رضي الله عنه.

موقف للشَّفَّاء بنت عبد الله رحمها الله:

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر أيضا من حديث سليمان بن أبي حثمة قال: قالت الشفّاء بنت عبد الله:- ورأت فتيانا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدا فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقا[1].

نعم فليست العبادة بتصنع الوقار، وإظهار النفوس في حال التخشع المفتعل، بل هي بالاستقامة على منهج الله تعالى الكامل الذي تصبح فيه العلانية صورة من السريرة.

وقد روي نحو هذا عن عائشة رضي الله عنها.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع[2].

وهكذا يكون المربون قدوة للناس بسمتهم ووقارهم وسلوكهم، قبل أن يكونوا كذلك بوعظهم وتذكيرهم.

(١) تاريخ الإسلام ٤٤/ ٢٨٨.

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٨٨.

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر حسن بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان، وقال قائلون: فلان فقال عمر ابن عبد العزيز: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب[1].

فهذه كلمة حق من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في وسط كان يكرهها، حيث كان أغلب بني أمية يكرهون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد صدَق عمر بن عبد العزيز في ذلك فلقد كان علي يشبه عمر ابن الخطاب في الزهد ولكن المجتمع الذي عاش فيه قد اختلف وتمكنت الدنيا من نفوس كثير من الناس، فلذلك لم يستطع أن يعمم حياة الزهد على أمرائه كما كان يفعل عمر وأصبح غريبا في مجتمعه.

إجلاله سعيد بن المسيب:

قال ابن عبد الحكم: وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب رحمه الله يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميرا ولا خليفة، فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك فأخذ نعليه وقام إليه من وقته، فلما رآه قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا فإنا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ إنما أرسلناه ليسألك، ولم يَرَ سعيد أنه يسعه التخلف عنه[2].

وهذا موقف عظيم من عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تعظيم علماء الدين ورعاية حقهم، فالعلم يُؤتَى إليه ولا يأتي، والعلماء يُقصدون، ولا يَقصدون غيرهم، لأن العلم لا يؤثِّر ولا يُعطي نتائجه المطلوبة إلا إذا تواضع له طالبوه، وأصبح جَوُّه مُفعمًا بالحب والاحترام لحملة العلم.

ولقد كان عمر موفقا حينما اعتذر للعالم الرباني سعيد بن المسيب وأصر على أن يذهب إليه رسوله ليسأله وهو في مجلسه احتراما له والتماسا لبركة العلم إذا أحيط بما يلزم له من ظروف وأسباب.

---

(٢) تاريخ دمشق ٤٢/ ٤٨٩، وانظر البداية والنهاية ٨/ ٥.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٦.

كما كـان سعيد بن المسـيب موفقا حينمـا استجاب لدعـوة عمر وهو الذي لم يستجب لدعـوة أحد قبله ولا بعده.. كان مـوفقا لأنه أظهر توقـير الوالي العادل وتفخيم أمره، وفي ذلك ما فيه من عـونه على الاستقامة على العدل، ودفع الناس إلى طاعته وتثبيت أمره في الولاية.

تقديره ولد قتادة بن النعمان:

قال الواقدي فيما يرويه عن شـيوخه: وأُصيبت يومئذ[1] عين قَتادة بن النُّعمان حتى وقعت على وَجْنَته. قال قتادة بن النعمان: فجئت رسول الله ﷺ فقلت: أى رسول الله، إنَّ تحتي امـرأةً شابة جميلة أحـبّها وتُحبني وأنا أخـشى أن تقذَر مكان عيني. فـأخذها رسول الله ﷺ فردّها فأبـصرت وعادت كما كـانت، فلم تضرب عليه سـاعةً من ليل ولا نهـار، وكان يقـول بعد أن أسنَّ: هي والله أقـوى عينَيّ! وكانت أحسنَهما[2].

وقال الحافظ ابن حـجر: أخرج الدارقطني وابن شاهين من طريق عـبد الرحمن ابن يحيى العذري عن مالك عن عاصم بن عمر بن قـتادة عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد فوقعت على وجنته فردها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه.

قال: وأخرجه الدارقطني والبيهقي في الدلائل من طريق عياض بن عبد الله بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري وذكر نحوه[3].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلا:

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه ... فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الرَّدِّ
فـعادت كـمـا كانت لأول أمـرها ... فـياحُـسْنَها عـينًا ويا حُسْنَ مـارَدِّ

(١) يعني يوم معركة أحد.
(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٤٢ وأخرجه ابن هشام مختصرا- سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣.
(٣) الإصابة ٣/ ٢١٧، رقم ٧٠٧٨.

فقال عمر بن عبدالعزيز عند ذلك :

تلك المكارم لاقَعْبان من لبن شِيْبَا بماء فعادا بَعْدُ أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه[1].

وولد قتادة هذا لم يُذكر اسمه في هذه الروايات، لكن جاء في رواية ذكرها الحافظ ابن حجر: قال عاصم: فحدثت به عمر بن عبدالعزيز، فذكر البيت الذي تمثل به عمر[2]، وهذا يعني أن عاصم ابن عمر بن قتادة المؤرخ المشهور هو صاحب القصة، ويكون قد انتسب إلى جده.

ففي هذا الخبر موقف لأمير المؤمنين عمر بن العزيز رحمه الله تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه رضي الله عنه في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبدالعزيز في المجال الأخلاقي، وذلك بتقدير أهل الفضل والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة رضي الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية.

ولقد كان ولده بارعًا حينما صور هذا المشهد بذينك البيتين من الشعر اللذين ارتجلهما في الرد على أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز لما سأله عن اسمه، وكان عمر أيضا بارعًا في جوابه واستشهاده ببيت الشعر الذي استشهد به.

تقديره زياد مولى ابن عياش:

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز في التواضع وتقدير العلماء ما جاء في رواية ابن عبدالحكم أنه قال: وقدم عليه زياد مولى ابن عياش وأصحاب له، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: والأولى لم تضرني، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال: إني أُعْظِم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضى زياد ما يريد خرج، فأمر

(١) البداية والنهاية ٤/ ٣٥، وانظر عيون الأثر ٢/ ١٤، وسيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي/ ١٩٦.
(٢) الإصابة ٣/ ٢١٧، رقم ٧٠٧٨.

عمر خـازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن مـعه يأخذون منه حاجتـهم، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمَـتْه عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه -وهو به غير عـارف- ففعل الخازن مـا أمر به، فدخل زياد فأخـذ لنفسه ولأصحـابه بضعا وثمانين درهما، أو بضعا وتسعين درهما، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال[1].

ففي هذا الخبر صـور من تواضع عمر بن عبدالعزيز رحمـه الله وتقديره للعلماء الربانيين، فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين، والمناصب لها فتنة يـقع في حبائلها من اغتـروا بالجاه والمنزلة الدنيوية، أمـا أقوياء الإيمان فإن شخصيـتهم لا تتغير بعد المنصب بل يظلون على مـا هم عليه من التواضع، وربما زادوا تواضعا في مقابلة احترام الناس لهم.

ثم هو ثانيًـا نزل عن مكانه حتى لا يعلو ذلك العـالم الرباني زياد بن أبي زياد مولى عبـدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وكـون ذلك العالم من الموالي لا يُنزل من قدره عند عمر فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب.

وموقف كريم لذلك العالم الرباني حـيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مُكِّن منه، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع.

وحينما تكون النفوس كـبيرة والعقول راجحة فإنهـا تعفُّ عن متاع الدنيا الذي يتنافس عليه الصـغار، وتطمح ببصرها نحـو نعيم الآخرة الخالد الذي يتنـافس فيه الكبار.

إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عيسى بن عبدالله بن محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب. قال: حـدثني يزيد بن عمر بن مورق قـال: كنت بالشام وعمـر بن عبدالعـزيز يعطي الناس، فتقـدمت إليه فقـال لي: ممن أنت؟ قلت من قـريش، قال من أي قـريش؟ قلت من بني هاشم. قـال من أي بني هاشم؟ قـال

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبدالحكم/ ٥٣، وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه -الزهد/ ٢٩٩، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي/ ٦١.

فسكت فقال من أي بني هاشم؟ قلت مـولى علي. قال من علي: فسكت، قال: فوضع يده على صدري وقال: وأنا والله مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم قال: حدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**» ثم قال: يا مـزاحم كم تعطي أمثاله؟ قال: مـائة أو مائتي درهم، قال أعطه خـمسين دينارًا، وقال ابن أبي داود: ستين دينارًا لولايته علي بن أبي طالب، ثم قال: الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك[1].

وهذا موقف يذكـر لأميـر المؤمنين عمر بن عـبدالعزيز حـيث حفظ حق أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب رضـي الله عنه فأكـرم وفادة ذلك الرجل وفـضله على غيره في العطيـة لكونه مولى لعلي، وفي هذا الخبر تصـوير للإرهاب الذي بثه بنو أمية في قلوب الناس فيمـا يتعلق بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته، حيث لم يجرأ ذلك المولى على ذكر انتسابه إليه في بادئ الأمر.

من مواقف الحسن البصري رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن حسان قال: بينا نحن عند الحسن البصري إذ أقبل رجل من الأزارقة فقـال: يا أبا سعيد ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: فاحمرت وجنتا الحسن وقال: رحم الله عليّا، إن عليّا كان سهما لله صائبا في أعـدائه، وكان في محلة العلم أشرفَها وأقـربها إلى رسول الله ﷺ، وكان رهبـانيَّ هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسَّـروقة، ولا في أمـر الله بالنؤومة، أعطى القرآن عزائمه وعملَه وعلمه، فكان منه في رياضٍ مونقة، وأعلام بينة، ذاك علي بن أبي طالب يا لكع[2].

فهذا مـوقف جيد من الحسن بن أبي الحـسن البصري رحمـه الله تعالى، حيث صـرح بفضـائل أمـير المؤمـنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمـام رجل من الخوارج، الذين كانوا من أعـدائه، والتصريح بفضائل الصحـابة أمام من يعادونهم نوع من الجهاد، لأن من فعل ذلك قد يتعرض للأذى.

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٦٤، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي/ ١٢.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٥.

من مواقف محمد بن علي بن الحسين رحمه الله:

قال عروة بن عبدالله: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال: لا بأس به، قد حلى أبو بكر الصدِّيق سيفه. قال: قلت: وتقول الصديق؟ قال: فوثب وثبةً واستقبل القبلة ثم قال: نَعمْ الصديق، نعم الصديق، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة.

وقال جابر الجعفي: قال لي محمد بن علي: يا جابر! بلغني أن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده -يعني نفسه- لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما، وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقال: من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة.

وقال في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [المائدة: ٥٥] الآية. قال: هم أصحاب محمد ﷺ، قال: قلت: يقولون: هو علي قال: على من أصحاب محمد[1].

فهذا كلام جليل من الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين في الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام في إثبات عدالة الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضلهم يُعدُّ من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها فاعلها، وخاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت، حيث نسب إليهم المبطلون كلاما في التنقيص من قدر الصحابة هم منه برءاء.

إن محبة أي إنسان تعني أن يصدر من مُحبِّه ما يهواه ويلائمه، ليكون قد حقق متطلبات الحب، وإن الذي يهواه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته أن تتحقق محبة الصحابة رضي الله عنهم في قلوب المسلمين وأن يُعرف فضل أهل التقدم منهم، أما دعوى التناقض بين محبة علي وآله ومحبة بقية

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٢٣.

الصحابة فهي دعوى باطلة، قد فنَّدها عليّ كما سبق، وهذا أحد أحفاده محمد بن علي يرد على هذه الدعوى ويبطلها.

موقف للأئمة أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد رحمهم الله:

ذكر الإمام الذهبي عن محمد بن إسحاق بن راهويه قال: حدثني أبي قال: قال لي أحمد بن حنبل: تعال حتى أريَك من لم يُرَ مثله، فذهب إلى الشافعي، قال أبي: وما رأى الشافعي مثل أحمد بن حنبل، ولولا أحمد وبذلُ نفسه لذهب الإسلام -يريد المحنة-[1].

فهذا مثل جليل في تقدير أهل الفضل، فقد كان الإمام أحمد يكثر من الثناء على الإمام الشافعي، ويرى أنه يتفوق على غيره بالتوسع في فهم معاني النصوص الشرعية، فلذلك أطنب في الثناء عليه، ومن ذلك ما ذكره علي بن أحمد بن النضر الأزدي قال: سمعت أحمد بن حنبل، وسئل عن الشافعي فقال: لقد مَنَّ الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلا كل خير[2].

وقوله «لقد تعلمنا كلام القوم» يشير به إلى فقه الفقهاء في المسائل التي دونوها حسب فهمهم من الكتاب والسنة والقياس عليهما فيما لا نص فيه.

وهذا الثناء يبين قوة إيمان الإمام أحمد وتجرده من حظ النفس، فالإمام الشافعي معاصر له، وقد وفد إلى بغداد بعلمه المتميز الذي لا يقاربه فيه أحد من علماء عصره، فلم يكن في قلب أحمد بن حنبل ذرة من الحسد له، بل رفع من ذكره ولازمه وأخذ العلم عنه حتى عاتبه أحد أهل العلم في لزوم ركابه فقال له: لو علمت علمه للزمتَ الرِّكاب الآخر.

وكما كان الشافعي متفوقا في هذا الجانب فإن أحمد بن حنبل كان متفوقا في جوانب أخرى، أبرزها التوسع في رواية السنة النبوية، كما كان صاحب الموقف

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٦. يعني امتحان الناس بالقول بخلق القرآن.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٨.

العظيم في الدفاع عن عـقيدة السلف الصالح رضـوان الله عليهم والثبات عـليها، وبهذا أثنى عليه الحافظ إسحاق بن راهويه.

وهكذا يضرب علماء الإسـلام أمثلة عالية في مكارم الأخلاق في مـجال تقدير أهل الفضل وتمجيد ذكرهم.

ومن ذلك ما رُوِي عن محمد بن أبي بشر قال: أتيت أحمد بن حنبل في مسألة فقال: ائت أبا عبيد فإن له بيانا لاتسمعه من غـيره، فأتيته فشفاني جوابه، فأخبرته بقـول أحمد فـقال: ذاك رجل من عـمَّال الله نشـر الله رداء عمله وذخـر له عنده الزُّلفي، أما تراه محببـا مألوفا، ما رأت عيني بالعراق رجلا اجتمـعت فيه خصال هي فيه، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم، فإنه لَكَمَا قيل:

يَزِينُكِ إِمَّـا غـــاب عنك فـإن دنا ... رأيت له وجـهـا يَسُـرُّك مـقـبـلا

يعلَّـم هذا الخَلْق مـــا شـذَّ عـنهمُ ... من الأدب المجهـول كهفا ومـعقلا

ويُحـــسِـن في ذات الإله إذا رأى ... مَضِـيمًا لأهل الحق لا يسـأم البَلا

وإخـــوانه الأدنون كـل مـــوفق ... بصير بأمر الله يسمو على العلا[1]

ففي هذا الخبـر مثل من آداب أهل العلم وتقدير أهل الفضل، فهـذان الإمامان الجليلان كل واحد منهما أثنى على الآخر بما فيه مـن خصال الخير، فالإمام أحمد قد تواضع وبرئ من حظ النفس حينما أحال من سأله في تلك المسألة العلمية على أبي عبيد القاسم بن سلام.

وفي المقابل كان أبو عبيد منصفا عارفا بفضل أهل الفضل، فقد أطنب في الثناء على أبي عبـدالله أحمد بن حنبل، ولم يقـل فيه إلا حقـا وصدقا، فـإن مآثر هذا الإمام قد بلغت المشرق والمغرب في زمنه، وما يزال ذكره حسنا وسمعته عالية.

ومما جاء في إبراز أهل الفضل والتقدم في العلم مـا رُوي عن عبدالله بن أحمد ابن حنبل قال: يا أبة مَنِ الحفاظ؟ قال يا بُنَيَ شباب كانوا عندنا من أهل خراسان، وقد تفرقوا قلت: من هم؟ قال: محمد بن إسماعيل ذاك البخاري، وعبيد الله بن

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠٠- ٢٠١.

عبـدالكريم ذاك الرازي، وعبـدالله بن عبدالرحـمن ذاك السمرقـندي، والحسن بن شجـاع ذاك البلخي، قال: فـقلت: يا أبة من أحـفظ هؤلاء؟ قال: أمـا أبو زرعة فأسردهم، وأما محـمد فأعرفهم، وأما الدارمي فأتقنهم وأما ابن شجـاع فأجمعهم للأبواب[1].

وهذا كلام جليل من الإمام أحمد في حـق هؤلاء الأربعة الحفاظ الكبار، الذين أصبح لهم شأن كبـير في الحياة العلمية آنذاك، وخاصـة في بلاد خراسان وما وراء النهر.

وقد نال هؤلاء كلهم شـهرة علمية ما عـدا محمد بن شجـاع البلخي وقد أبان السبب في ذلك محمد بن عقيل، وذلك فيما ذكر أبو عمرو محمد البيكندي قال: فحكيت هذا -يعني كـلام الإمام أحمد- لمحـمد بن عقيل فأطرى ذكـر الحسن بن شجاع، فقلت له: لم يشتهر كما اشتهر هؤلاء؟ قال: لأنه لم يُمتَّع بالعمر[2].

والعمر كان عاملا مهمّا في اشتهار العالم آنذاك لأن مرحلة الطلب طويلة، ولا يكاد العالم يعطي علمه ويؤلف إلا في سن الكهولة.

فأما الإمام محـمد بن إسماعيل البخاري، فمن المعـروف في ذلك العهد وبعده بأنه أفضل هؤلاء، وقد حاز التميز في كـل الخصال التي ذكرها الإمام أحمد ولكن الإمام أحمد أراد أن يذكـر أهم صفة تميز بها كل واحد، وقد اشـتهر في التصنيف في السنة كما هو واضح من كتابه «الجامع الصحيح» وفي الجرح والتعديل كما هو واضح في كتابه «التاريخ الكبير».

وأما الإمام أبو زرعة عبيد الله بن عبـدالكريم الرازي فقد اشتهر في علم الجرح والتعديل، وأقـواله مبثوثة في كتب هذا الفن ومن أبرزها «الجـرح والتعديل» لابن أبي حاتم.

وأما الإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي السمرقندي فقد اشتهر بتدوين السنة وكتابه في السنن مشهور معروف.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٩.

وهذا لا يعني خلو ذلك العصر من الحفاظ غير هؤلاء بل هناك حفاظ كثيرون من أمثال الحافظ أبي حاتم الذي كان قرين الحافظ أبي زرعة في الجرح والتعديل، والحافظ أحمد بن عبدالله العجلي، والحافظ محمد بن واره، وأمثالهم كثير.

وإنما ذكر الإمام أحمد أبرز الحفاظ الذين لازموه في أثناء طلب العلم.

موقف لعمرو بن علي الفلاس رحمه الله:

أخرج الخطيب البغدادي من خبر محمد بن أبي حاتم الوراق قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: ذاكرني أصحاب عمرو بن علي بحديث فقلت: لا أعرفه، فسرُّوا بذلك، وساروا إلى عمرو بن علي فقالوا: ذاكرنا محمد بن إسماعيل البخاري بحديث فلم يعرفه، فقال عمرو بن علي: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث[1].

فهذا موقف جليل للحافظ عمرو بن علي الفلاس حيث لم يغتنم هذه الفرصة للتشهير بالإمام البخاري حينما أبدى عدم معرفته بذلك الحديث الذي طرحه عليه تلاميذ الفلاس، بل تصرف بضد ذلك حينما أثنى على البخاري في العلم ثناءً عظيمًا، فحكم على أي حديث لا يعرفه البخاري بأنه ليس بحديث مُعتدٍّ به، وهذه شهادة قيمة من حافظ كبير.

وهذا السلوك من الحافظ الفلاس يُعدُّ قمة في البعد عن الأنانية، والتجرد من حظ النفس، والاعتراف بالفضل لأهله.

موقف لسهل بن عبدالله التستري رحمه الله:

ومن ذلك ما رُوي عن القاضي الخليل بن أحمد السجزي: سمعت أحمد بن محمد بن الليث قاضي بلدنا يقول: جاء سهل بن عبدالله التستري إلى أبي داود السجستاني فقيل: يا أبا داود هذا سهل بن عبدالله جاءك زائرا، فرحب به وأجلسه، فقال سهل: يا أبا داود لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان، قال: نعم، قال: أخرِج إلي لسانك الذي تحدث به أحاديث رسول الله ﷺ حتى أقبِّله، فأخرج إليه لسانه فقبله[2].

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢١٣، وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٤.

فهذا مـثل عالٍ من إكرام أهل العلم وتقديرهـم الذي هو مبني على تعظيم سنة رسول الله ﷺ.

وإن هذا التقدير البالغ والاحترام الكبير لأصحاب الحديث الذي عمرت به تلك العصور الزاهرة من أهم أسباب ازدهار التحديث، وإقبال طلاب العلم على دراسة السنة النبـوية، فقـد أصبح أهل الحـديث هم عِلْيَةُ القـوم في كل بلد، وهم الذين يشار إليهم بالبنان، ويغبطهم على السمعة العالية الكبراء من أهل السمعة الدنيوية.

ولقد أصبح الحُلُم الكبير في تلك العصـور للآباء والأمهات في مستقبل أبنائهم أن يكونوا من المحـدثين حتى يحـوزوا على تلك السمـعة العـالية، ولذلك كـانوا يحملون أبناءهم من الصغر على حفظ القـرآن الكريم، ثم على السماع من شيوخ الحديث.

موقف للأمير نوح بن نصر رحمه الله

ذكر الحافظ الذهبي من خـبر أبي عبد الرحمن السلمي قال: سـمعت أبا أحمد الحافظ[1] يقول: حضرت مع الشيوخ عند أمـير خراسان نوح بن نصر، فقال: من يحـفظ منكم حديث أبي بكر رضي الله عـنه في الصدقـات؟ فلم يكن فيـهم من يحفظه، وكان عليَّ خُلْقَانٌ وأنا في آخر الـناس، فقلت لوزيره: أنا أحفظه، فقال: هاهنا فتى من نيـسابور يحفظه، فقُدِّمت فـوقهم، ورَوَيْتُ الحديث، فقـال الأمير: مثل هذا لا يُضيَعَّ، فولاني قضاء الشاش[2].

وهكذا ارتفع هـذا الفـتى بسـبب حـفظه حـديث أبي بكـر رضي الله عنه في الصدقات، وقد أصبح فيما بعد من الحفاظ المشهورين.

وهذا السؤال من ذلك الأميـر نوح بن نصر يُعدُّ اهتمـامًا منه بالعلم وأهله، ولما برز هذا الشاب في حفظ ذلك الحديث الطويل قدَّره ذلك الأمير وولاه القضاء.

وهكذا يرفع العلم أقواما وإن كانوا صـغارا لا يُؤْبه بهم وذلك عند من يقدرون العلم وأهله.

---

(١) هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد النيسابوري (الحاكم الكبير).

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٧٢ - ٣٧٣.

موقف للأمير إسماعيل بن أحمد الساماني رحمه الله:

من أمثلة تقدير أهل الفضل والعلم ما ذكره الوزير أبو الفضل محمد بن عبيد الله البَلْعَمي: سمعت الأمير إسماعيل بن أحمد يقول: كنت بسمرقند، فجلست يومًا للمظالم وجلس أخي إسحاق إلى جنبي إذ دخل أبو عبدالله محمد بن نصر، فقمت له إجلالا للعلم، فلما خرج عاتبني أخي وقال: أنت والي خراسان تقوم لرجل من الرعية؟ هذا ذهاب السياسة.

قال: فبتُّ تلك الليلة وأنا متقسِّم القلب، فرأيت النبي ﷺ في المنام، كأنِّي واقف مع أخي إسحاق، إذ أقبل النبي ﷺ فأخذ بعضُدِي، فقال لي: ثَبَتَ ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن نصر، ثم التفت إلى إسحاق فقال: ذهب ملك إسحاق وملك بنيه باستخفافه بمحمد بن نصر(١).

وهكذا أنقذ الله تعالى بهذه الرؤيا المباركة الأمير إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان من تلك الحيرة التي تردد فيها بين الاستمرار في احترام العلماء، وهو الذي تميل إليه نفسه الطيبة، وبين التمسك بالمظاهر المصطنعة التي يقصد بها إظهار هيبة السلطة، فتبيَّن له من هذه الرؤيا أن التواضع للعلماء هو السياسة الحكيمة وهو الذي يعطي ولي الأمر قوة تُبقي على ولايته وتحبب الرعية إليه.

وإن هذا هو الموافق لتوجيهات النبي ﷺ في مثل قوله «**إن من إجلال الله تعالى إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط**»(٢).

وإذا كان إجلال عالم الدين إجلالا لله تعالى فإنه سبحانه يوفق من صدر منه إلى الخير، ويقيه الشر، ويثبت له أمره إن كان من الولاة.

وإذا نظرنا إلى الأمر من ناحية السياسة الإنسانية الاجتهادية فإن علماء الدين لهم مكانة عالية في نفوس المسلمين، فمن أعزهم كان عزيزا عندهم، ومن أذلهم كان محتقرا مكروها لديهم، ولهذا فإنه بِغَضِّ النظر عن المعنى الأول الذي هو الأهم، فإن ذلك الوالي كان أعلى في فهم السياسة من أخيه.

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٨-٣٩.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب رقم ٤٦٧٦ باب ٢٣.

موقف للإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: لما رحلت بابني[1] إلى العراق صحبني جماعة من الغرباء، فسألوني: أى حديث عند أحمد بن حنبل أغرب؟[2] فكنت أقول: إذا دخلنا عليه سألته عن حديث تستفيدونه، فلما دخلنا عليه سألته عن حديث يحيى بن سعيد عن عثمان بن غياث عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر.. حديث الإيمان[3].

فقال: يا أبا عبدالله ليس هو عندى عن يحيى بن سعيد، فخجلت وقمنا، فأخذ أصحابنا يقولون: إنه ذكر الحديث غير مرة، ثم لم يعرفه أحمد، وأنا ساكت لا أجيبهم.

قال: ثم قدمنا بغداد فدخلنا على أحمد فرحب بنا وسأل عنا، ثم قال: أخبرني يا أبا عبدالله أي حديث استفدت من مسدَّد عن يحيى بن سعيد؟ فذكرت له حديث الإيمان، فقال أحمد: حدثناه يحيى بن سعيد، ثم أخرج كتابه وأملى علينا، فسكت محمد بن يحيى ولم يقل: سألناك عنه، فتعجب أصحابه من صبره.

قال: فأخبر أحمد بأنه كان سأله عن الحديث قبل خروجه إلى البصرة، فكان أبو عبدالله إذا ذكره يقول: محمد بن يحيى العاقل[4].

فهذا مثل رفيع في الأدب مع العلماء، فمحمد بن يحيى الذهلي كان قد اهتز موقفه لما عرض ذلك الحديث على الإمام أحمد بن حنبل فأجابه بأنه ليس من حديثه، واختلال السمعة العلمية أمام إمام كبير كأحمد بن حنبل يُعدُّ هبوطًا في المستوى العلمي في الحفظ، فكان المظنون بالذهلي أن ينتهز فرصة تحديث الإمام أحمد به في المرة الثانية ليذكِّره بذلك الموقف، ولكن لما كان في ذلك شيء من التهوين من سمعة العلماء أعرض عن ذلك.

---

(١) يعني ابنه يحيى بن محمد الذهلي وهو من الحفاظ وقد ورث المكانة العلمية بعد أبيه في نيسابور.

(٢) أي غير مشهور بإسناد معين وإن كان متنه مشهورا.

(٣) يعني حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان إلخ.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

وموقف جليل من الإمام أحمد حينما أشاد بمحمد بن يحيى لما علم بذلك الموقف ولقبه بالعاقل.

ولئن كان الإمام أحمد قد نسي ذلك الحديث في ذلك الموقف مع قوة حفظه وسعة علمه فإن ذلك لا يهوِّن من سمعته العلمية فلكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة.

موقف للأمير طاهر بن عبدالله رحمه الله:

ومما جاء في تقدير أهل الفضل واحترام أهل العلم ما جاء في قول جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ: ما رأيت في المحدثين أهيب من محمد بن رافع، كان يستند إلى الشجرة الصنوبر في داره، فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم، وأولاد الطاهرية ومعهم الخدم[1]، كأن على رؤوسهم الطير، فيأخذ الكتاب ويقرأ بنفسه، ولا ينطق أحد ولا يبتسم إجلالاً له، وإذا تبسم واحد أو راطن صاحبه قال: وصلى الله على محمد، ويأخذ الكتاب، فلا يقدر أحد يراجعه أو يشير بيده، ولقد تبسم خادم من خدم الطاهرية يوما فقطع ابن رافع مجلسه، فانتهى الخبر بذلك إلى طاهر بن عبدالله فأمر بقتل الخادم، حتى احتلنا لخلاصه[2].

فهذا مثل من إجلال الأمير طاهر بن عبدالله للعلم وأهله، وإن كان قد بالغ في العقوبة، ولعله لم يكن يريد تنفيذ ذلك وإنما أراد تثبيت هيبة ذلك العالم الجليل في نفوس الناس.

إن إجلال علماء الدين دليل على تعظيم الدين نفسه، وذلك دليل على قوة الإيمان بهذا الدين.

وما كان من محمد بن رافع من الحزم والشدة في ضبط الدرس يُعدُّ إجلالا لحديث رسول الله ﷺ، وليس من باب الكبر وإثبات الشخصية، فلقد قال عنه الإمام البخاري: كان من خيار عباد الله.

موقف للحافظ محمد بن بشار رحمه الله:

وذلك فيما أخرجه الخطيب البغدادي عن محمد بن أبي حاتم قال: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس محمد بن

(١) يعنى أولاد الأمير ابن طاهر.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١٦.

بشار، فلما خرج وقع بصره عليَّ فقال: من أين الفتى؟ قلت: من أهل بخارى، قال: كيف تركت أبا عبدالله؟ فأمسكت، فقال له أصحابه: رحمك الله هو أبو عبدالله، فقام وأخذ بيدي وعانقنى، وقال: مرحبًا بمن أفتخر به منذ سنين[1].

فهذه لفتة كريمة من الحافظ محمد بن بشار المعروف بـ«بندار» حيث احتفى بالإمام أبي عبدالله البخاري وأكرمه وهو في طبقة تلاميذه، وهذا من تقدير أهل الفضل لأهل الفضل، وإنما يقدر أهل الفضل والتقدم الكبارُ العظماء ولا يحتقرهم إلا حاسد أو جاهل.

وموقف لأبي عبدالله البخاري حينما سأله بندار عن البخاري وهو لا يعرف أنه الذي أمامه حيث سكت أبو عبدالله ولم يَظهر منه الفخر والاعتداد بالنفس، وكان رحمه الله تعالى من رجاحة عقله شديد الحياء والبعد عن الشهرة، كما قال عنه محمد بن سلام لجلسائه: أترون البكر أشد حياءً من هذا؟[2].

وموقف آخر للحافظ بندار مع أحد أقارب الإمام البخاري، يقول محمد بن يوسف: لما دخلت البصرة صرت إلى بندار فقال لي: من أين أنت؟ قلت: من خراسان، قال: من أيها؟ قلت: من بخارى، قال: تعرف محمد بن إسماعيل؟ قلت: أنا من قرابته، فكان بعد ذلك يرفعني فوق الناس[3].

فهذا مثل من إجلال أهل الفضل والعلم، فقد جاز محمد بن يوسف على التقدم في مجلس بندار لكونه من قرابة أبي عبدالله البخاري، وهذا يبين لنا شيئًا من فضل الإمام البخاري وتقدمه في نظر العلماء.

موقف للحسين بن أحمد بن فطيمة رحمه الله:

ذكر الحافظ الذهبي في رواية له عن أبي المظفَّر عبدالرحيم بن عبدالكريم ابن الحافظ أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني أنه قال عن الإمام الحسين بن أحمد ابن فطيمة الخُسروجرْدى: كثيرُ السماع حسن السيرة مليح المجالسة، ما رأيت أخف روحًا منه، مع السخاء والبذل، سمعت منه الكثير، وكتب لي أجزاء، ومن

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤١٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٢.

العجب أنه قُطعت أصابعه بكرمان من علَّة، فكان يأخذ القلم ويترك الورق تحت رجله ويمسك القلم بكفَّيه، فيكتب خطا مليحا سريعا، يكتب في اليوم خمس طاقات خطًّا واسعا، تفقه بمرو على جدِّي أبي المظفر.

قال السمعاني: خرجت نحو «أصبهان»، فتركت القافلة ومضيت إلى «خُسْرَوْجرد» مع رفيق لي راجلين، فدخلنا داره، وسلمنا على أصحابه فما التفتوا علينا، ثم خرج الشيخ فاستقبلناه فأقبل علينا وقال: لِمَ جئتم؟ قلنا: لنقرأ عليك جزأين من معرفة الآثار للبيهقي، فقال: لعلكم سمعتم الكتاب من الشيخ عبدالجبار[1] وفاتكم هذا القدر؟ قلنا: بلى، وكان الجزآن فَوتًا لعبد الجبار، فقال: تكونون عندي الليلة فإن لي مُهمّا، أريد أن أخرج إلى «سَتْرَوار» فإن ابني كتب إليَّ أن ابن أستاذي جائي في هذه القافلة، فأريد أن أسلم عليه وأسأله أن يقيم عندي أياما، وسمَّاني[2]، فتبسمت، فقال لي: تعرفه؟ قلت: هو بين يديك، فقام ونزل وبكى، وكاد أن يقبل رجلَيّ، ثم أخرج الكتب والأجزاء، ووهبني بعض أصوله، فكنت عنده ثلاثة أيام[3].

وهكذا رأينا معاملة هذا العالم الجليل مع حفيد شيخه، وهذا سلوك كريم في احترام العلماء والوفاء لأهل الفضل، فقد كان على استعداد للخروج إلى قرية أخرى لاستقبال حفيد أستاذه مع فارق السن بينهما إجلالا لأستاذه الإمام أبي المظفر السمعاني وحفظا لحقه، ثم لما علم بأنه من يخاطبه بكى من تذكُّر أستاذه والفرح بلقاء حفيده، وكانت منه تلك المظاهر العالية من الحفاوة والإكرام.

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تبين لنا رابطة المحبة القوية بين الشيوخ وتلاميذهم.

ومما جاء في هذا الخبر وصف هذا العالم الجليل بأنه لما قُطِعَتْ أصابعه أصبح يمسك القلم بكفيه ويكتب خطا مليحا سريعا، وهذا دليل على علو همة هذا العالم وطموحه نحو المعالي، فلم يعذر نفسه بفقد أصابعه، بل مرَّن كفيه حتى أصبحتا

(١) يعني أبا محمد عبدالجبار بن محمد الخواري المنيعي.
(٢) يعني ذكر اسم ابن استاذه فإذا هو الذي يخاطبه.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٦١ - ٦٢.

تقومان بمهمة الأصابع، وهذا دليل على أن الإنسان لديه طاقة عالية للعمل، ولكنه يكبتها بالتكاسل أحيانا والاعتماد على غيره أحيانًا أخرى.

موقفان لأبي عمر محمد بن يوسف القاضي وأبيه رحمهما الله:

ومما جاء في تقدير أهل الفضل والعلم وجزاء ذلك ما رُوي من أن الإمام أبا إسحاق الحربي لما دخل على إسماعيل القاضي بادر أبو عمر محمد بن يوسف القاضي إلى نعله فأخذها فمسحها من الغبار، فدعا له وقال: أعزك الله في الدنيا والآخرة، فلما توفي أبو عمر رُؤي في النوم فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: أعزني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح[1].

فهذا الخبر قد اشتمل على تواضع كريم من أبي عمر محمد بن يوسف القاضي حيث بادر إلى نعل الإمام إبراهيم الحربي فمسحها من الغبار، وهذا دليل على المكانة الكبرى في قلوب أهل العلم للعلماء الربانيين.

ولقد كان هذا العمل البسيط سببا في حصول أبي عمر على العز في الدنيا والآخرة استجابة لدعوة العالم الرباني الصالح أبي إسحاق الحربي، كما تفيده تلك الرؤيا المباركة، وهذا يدل على أن دعوة أبي إسحاق قد صدرت من قلبه، رحمهم الله تعالى جميعا.

وموقف آخر ليوسف القاضي والد أبي عمر يرويه الحسن بن قريش فيقول: حضرتُ إبراهيم الحربي وجاء يوسف القاضي ومعه ابنه أبو عمر: فقال له: يا أبا إسحاق لو جئناك على مقدار واجب حقك لكانت أوقاتنا كلها عندك، فقال: ليس كل غيبة جفوة ولا كل لقاء مودة وإنما هو تقارب القلوب[2].

فهذه كلمات جليلة معبرة من العالم يوسف القاضي في حق الإمام إبراهيم الحربي، تدل على مكانته العالية في قلبه، وإجابةٌ سديدة من أبي إسحاق الحربي وضع فيها الأمور مواضعها حيث بين أن العبرة بتقارب القلوب لا بكثرة الزيارات، وإن كانت الزيارات سببا في توثيق الصلات، وتقوية الروابط القلبية.

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٥٧ - ٣٥٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٥٨.

موقف لأبي مسلم الكجِّي رحمه الله

ومن أمثلة تقدير أهل العلم والفضل ما ذكره جعفر بن محمد الطَّبَسي قال: كنا ببغداد ومعنا عبدالله مستملي صالح جزرة، فقيل لأبي مسلم الكجي: هذا مستملي صالح، قال: ومَنْ صالح؟ فقيل: صالح الجزري، قال: ويْحكم، ما أهونه عليكم! ألا تقول: سيد المسلمين، وكنا في أخريات الناس فقدَّمَنا، فقال: كيف أخي وكبيري؟ ما تريدون؟ فقلنا: أحاديث محمد بن عرعرة وحكايات الأصمعي، فأملى علينا عن ظهر قلب، وكان ضريرا مخضوب اللحية[1].

فهذا موقف كريم من الإمام أبي مسلم الكجي حيث حفظ حق العالم الجليل الحافظ صالح جزرة، فوصفه بأنه سيد المسلمين، وهذا الوصف له سابقة من أقوال الصحابة رضي الله عنهم في وصف العلماء، فقد قال عمر بن الخطاب عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنهما: إنه سيد المسلمين، والسيادة تعني التقدم والرئاسة، فسيد القوم هو رئيسهم المقدم فيهم، والعلماء هم سادة المسلمين لأن مهمة جميع المسلمين في هذه الحياة هي تطبيق شريعة الله تعالى وعمران الأرض بها، والذين لهم حق الإشراف على هذا التطبيق وتوجيه المسلمين نحو التطبيق الصحيح هم علماء الدين.

موقف لإبراهيم الحربي رحمه الله:

قال ابن بشكوال: نقلت من كتاب ابن عتاب: كان إبراهيم الحربي رجلاً صالحًا من أهل العلم، بلغه أن قومًا من الذين كانوا يجالسونه يفضلونه على الإمام أحمد ابن حنبل، فَوقَفَهم على ذلك فأقروا به، فقال: ظلمتموني بتفضيلكم لي على رجل لا أشْبهه ولا ألحق به في حال من أحواله، فأُقسم بالله لا أسمعكم شيئًا من العلم أبدًا، فلا تأتوني بعد يومكم[2].

فهذا موقف كريم للعالم الجليل إبراهيم الحربي، فقد غضب حينما فضلوه على الإمام أحمد بن حنبل، وبَّين فضله عليه، فهذا يدل على تواضعه وعدم اغتراره بثناء الناس عليه، والعاقل هو من عرف قدر نفسه، ووزنها بما يعلم منها لا بما يقول الناس عنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٢٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٤.

وهؤلاء الطلاب لعل لهم بعض العذر فيما ذهبوا إليه، وذلك أن الناس عادة تميل نفوسهم إلى العالم المعاصر لهم، لمباشرتهم معرفة فضائله، ولفضله المباشر عليهم، وقد يكون ذلك أبلغ في نفوسهم من قراءة تاريخ من مضى ولو كان قريبًا من زمنهم.

ولئن كان ما يتصف به إبراهيم الحربي من تواضع كبير، وما يعتقده من تقدم الإمام أحمد عليه في كل أحواله قد حمله على الغضب مما قاله تلامذته، فلقد بالغ في عقوبة هؤلاء التلاميذ وما كان ينبغي له أن يحرمهم من علمه إلى الأبد، رحمهم الله جميعًا.

موقفان للإمامين علي بن المديني والبخاري رحمهما الله:

ذكر الإمام الذهبي من خبر أحمد بن عبد السلام قال: ذكَرْنَا قول البخاري لعلي بن المديني يعني: ما استصغرت نفسي إلا بين يدي عليّ بن المديني، فقال علي: دَعُوا هذا فإن محمد بن إسماعيل لم ير مثل نفسه[1].

وهذا مثل من السمو الأخلاقي في الأدب العلمي يقدمه هذان الإمامان الكبيران حيث ذكر كل واحد منهما الآخر بما هو أهله، ولم يغتر ابن المديني بثناء البخاري عليه مع أن الثناء منه يعني ارتفاع من أثنى عليه وتميزه، لأن الثناء من الكبير كبير.

موقف لإسماعيل بن أبي أويس رحمه الله:

ذكر الإمام الذهبي من خبر الإمام البخاري أنه قال: اجتمع أصحاب الحديث فسألوني أن أكلم إسماعيل بن أبي أويس ليزيدهم في القراءة، ففعلت، فدعا إسماعيل الجارية وأمرها أن تُخرِج صرة دنانير، وقال: يا أبا عبد الله فرِّقها عليهم.

قلت: إنما أرادوا الحديث، قال: قد أجبتك إلى ماطلبت من الزيادة، غير أني أحب أن يُضمَّ هذا إلى ذاك ليظهر أثرك فيهم[2].

ففي هذا الخبر بيان اهتمام أهل الحديث بهذا العلم الشريف. فقد استشفعوا بأبي عبد الله البخاري إلى إسماعيل بن أبي أويس ليزيدهم في الحديث، وفي هذا دلالة على مكانة الإمام البخاري.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٠، تاريخ بغداد ١٨/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤١٩/١٢.

وفيـما قـام به الحافظ ابن أبي أويس من توزيع الدنـانير على يد أبي عـبد الله البخاري مَثَلٌ من تقدير أهل الفضل وحفظ مكانتهم.

من مواقف الحافظ عبد العظيم المنذري رحمه الله:

يقول الحـافظ عبد الوهـاب السبكي: ولما استـقر مقـامه (يعني الشـيخ العز بن عبدالسلام) بمصر أكرمه حافظ الديار المصرية وزاهدها عبد العظيم المنذري، وامتنع من الفتيا وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين عليه[1].

فهـذا مثل جيـد في احترام العلمـاء بعضهم بعـضًا وتقدير أهـل الفضل منهم والتقدم، وهذا يبين لنا أن الحافظ المنذري من العلماء الربانيين المتقين، ولو أنه كان من علمـاء الدنيـا لدب إلى قلبـه الحـسـد ولحـاول التنقـيص من شـأن العـز بن عبدالسلام.

***

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٨١ .